

رواية

دُمُوعٌ مُقَدَّسَةٌ

عبد الرحمن الآنسي

دُمُوعٌ مُقَدَّسَةٌ

لم أكن أعلم يا ثُريّا أن للجنس البشري حقدًا
كذلك الذي تجرَّعتِ بسببه
كؤوس الذلة والمهانة
أذكر قبل لقائنا .. عندما أخبرتيني بأسف
أن هناك فرقًا بين من يتزوجنا ليُسعِدنا
وبين من يتزوجنا ليستعبدنا
سألتك باهتمام عن الفرق
فكان جوابك هذه الرواية



9 781644 400357
كُتُبنا
KOTOBNA

عنوان الرواية: دموعٌ مقدّسة

المؤلف: عبد الرحمن الآنسي

رسم وتصميم الغلاف: أحمد خلف

رقم الإصدار الدولي: 978-1-64440-035-7

الناشر: كتبنا

2020 م

ملاحظة مهمة جدا

حقوق النشر والطبع محفوظة لدى الكاتب ، ولا يحق لأي موقع الكتروني أو دار نشر أو مكتبة مشاركة الكتاب بأي وسيلة من الوسائل دون إذن خطي من الكاتب أو ممن ينوب عنه.

مقدمة الكاتب

دخل المساء يحمل في طيّاته الكثير من واجباتي الجامعية، كنتُ منشغلا بمذاكرة دروسي ، وفجأة ، انبثقت رسالة من رقم مجهول، عرفتُ بعد العديد من الرسائل أنها امرأةٌ يمنية ، ثلاثينية العمر ، قرأتُ في حروفها بكاء، وفي انتظارها ألم. أخبرتني أنها عرفتني من خلال كتاباتي. تمنَّتْ لو أنها تمتلك مَلكةَ الكتابة؛ حتى تكتب عن حياتها التعيسة. بعد حوارٍ طويلٍ دار بيننا ، طَلَبتْ مني أن أكتب كل ما ستقصه عليَّ ؛ لتصل حياة من هم أمثالها إلى البقية. أمرٌ طارئ أجبرني على زيارة اليمن ، وأجبرني الفضول للقاء ثريّا، ومعرفتها عن قرب.طلبتُ منها ذلك، فوافَقَتْ. طافت بي في بعض الأماكن التي دارَتْ فيها أحداث الرواية ، ومنها المدرسة التي قضت جزءا من حياتها بين أروقتها ، سَألتُ أبناء الحي عن مصير حارس المدرسة ، وكان كما حَكَتْ لي تماما. أيقنتُ بعد ذلك أن كل ما حكته لي هو من الواقع ، فوعدت نفسي قبل أن أعدها بأنني سأكتب قصّتها المأساوية ، ولو كلّفني ذلك سنوات.

قبل أن نفترق طوقتني أمانة الاحتفاظ باسمها ، فوضعتُ اسم "ثريَّا" احتراما لخصوصيتها التي لا يحق لي تجاوزها.عُدْتُ من اليمن إلى بلاد المهجر، وشرعتُ في الكتابة حتى وصلت إلى ما قبل النهاية. حاولت التواصل بها، لكن هاتفها كان مغلقا. بعد محاولات طويلة، وصلتني أخبارها الأخيرة ممن تعرَّفْتُ عليهم من أبناء حي المدرسة.

لَكَمْ تمنيتُ بعد انتهائي من كتابة هذه الرواية أن تقرأها ثريَّا، حتى تعلم وفائي لها بما وعدتها.

عبد الرحمن الآنسي

الإهـــداء

إلى كل أنثى تكافح حفاظا على كرامتها وأملاً في بقاء أسرتها.

" كلّ الذين ماتوا .. نجوا من الحياةِ بأعجوبة"

- محمود درويش

الفصل الأول

-١-

رنَّ الهاتف فجأة فقطع عليها خيوط تلك الخيالات التي كانت تراودها كل ليلةٍ قبل المنام. أخذت الهاتف لتنظر من يكون المتصل ، إنه الحاج أحمد ، حارس المدرسة ، استغربَت لاتصاله في مثل هذا الوقت المتأخر، فردَّت:

- الو

- مساء الخير أستاذة ثريَّا. .أعتذر لاتصالي في مثل هذا الوقت، ولكن عندي طلب وأتمنى لو أن بمقدورك خدمتي.

- تفضل عم أحمد . . خيرا إن شاء الله!

- غدا لن أستطيع الحضور إلى المدرسة . .

- لماذا. .هل أنت مريض؟

بنبرة حزينة وصلها صوته:

- إدارة المدرسة استبدلتني بحارس جديد، ومفاتيح المدرسة بحوزتي، ولابد من تسليمه للإدارة غدا.

بعد أن أظهرت ثريا أسفها لما حصل للعم أحمد قالت:

- ولماذا لا تسلِّمه بنفسك عم أحمد . . أليس هذا أفضل؟

- في الحقيقة لم أعد أطيق رؤية المدرسة التي أمضيت في حراستها جلّ عمري ، ثم هاهم يتخلون عني ببساطة مؤلمة ، فهل بمقدورك أخذه قبل ذهابك ؟

استغرَبَتْ ثُريَّا من الأمر ، فالحاج أحمد ، حارس المدرسة منذ سنوات ، والجميع يحبه.

لم تشأ معرفة سبب استبداله بحارس آخر ؛ مراعاةً لمشاعره ، ولم ترفض طلبه كذلك.اتفقا على كيفية حصولها على المفاتيح ، ومن ثم أغلقت السماعة واستلقت على سريرها وهي تتساءل " لماذا استغنت الإدارة بكل هذه البساطة عن الحاج أحمد ؟ هل أساء إلى أحد ؟ هل أزعج الإدارة بشيء؟ ربما خرج من المدرسة وتأخر كعادته فسُرقت أشياء منها " لقد تواردت إلى

ذهنها عدد من الاحتمالات ، أو لعله تعرّض لإحدى الفتيات ، هكذا طرأ على بالها ، مع استبعادها لذلك .

فكّرت ما لو أنها اتصلت بالأستاذة هالة ـزميلتها في العملـ لتخبرها بأمر الحارس ، لكن انشغالها بكتابة رسالة الماجستير كان قد أرهقها ذلك اليوم ، فاستسلمت للنوم بكل هدوء.

-٢-

نهضت ثريَّا صباح اليوم التالي ، لبست عباءتها الجذَّابة مع خمارها الأنيق بعد أن وضعت بعض مساحيق التجميل، ثم اتجهت نحو المدرسة. رغم كل تلك الآلام التي تسكن حياتها إلا أنها امرأة تهتم بمظهرها وجمالها وأناقة ملابسها الذي لا يخفى على عابر ، ولو على بعد بعيد من طرف ذلك الشارع الذي ينتهي بالمدرسة.

أخذت مفاتيح المدرسة كما اتفقت مع الحاج أحمد، فسلّمته لإدارة المدرسة ، التي بدورها سلمته للحارس الجديد؛ ثلاثيني العمر ، ممشوق القوام يصل طوله إلى خمسة أقدام ويزيد ، جسمه المكتنز بالعضلات يوحي برجل قوي البنية ، لديه عينان كعيني الصقر، على خلاف الحاج أحمد الذي يبدو نحيلا كعود الخيزران ، تحيط وجهه لحية مبعثرة ، وتعلاه عينان ضامرتان من كثرة السهر والعمل ، يبدو ذلك من كثرة مضغه للقات،

والسهر المطّرد ، حتى أصبح جسمه النحيل منهكاً بالإرهاق ، يحكي مرارة العيش التي يكابدها .

تعترف ثريَّا لنفسها بأن الحارس الشاب شدَّها جسمه الرياضي، وحركاته الرجولية، لكنها لم تبدِ أيّا من هذا لأحد ، دخلت المدرسة يراودها سؤال مديرة المدرسة عن سبب تغيير الحارس المفاجئ، لكن الأخيرة أمرتها بصرامة أن لا تتدخل في مثل هذه الأمور، وأن تهتم بعملها وحسب .

بدأت تفكّر، كيف للإدارة أن تستغني عن الحاج أحمد ، وهو حارس المدرسة منذ سنين، وكبير في السن نوعا ما، ناهيك عن أن المدرسة مكتظة بالطالبات، واستلام رجل ثلاثيني مهمة الحراسة مثيرٌ للجدل.

التفَتت نحو المديرة تحاول إقناعها :

- لكن المدرسة مكتظة ببنات الناس يا حضرة المديرة ، ولو تم اختيار حارس بعمر الحاج أحمد لكان أفضل !

- تتحدثين وكأن المتقدمين في العمر أقل سوءًا من غيرهم ، كلهم أمام شهواتهم سواء.

غادرت ثريّا مكتب الإدارة نحو الصف لتلقي درساً في الكيمياء لطالباتها ، بعد أن رأت أنه لا فائدة من مناقشة المديرة أكثر ، ولم تلق للأمر أهمية أكثر من اللازم؛ فبقاء الحاج أحمد أو ذهابه لا يعنيها كثيرا.

انتهت من درسها ، فخرجت متجهة نحو رواق المدرسة. وقفت تنظر نحو الفضاء بعينين هادئتين .رنا إليها الحارس_الواقف على مقربة منها_ليرى أمامه آيةً من آيات الجمال الفاتن ، قوامها الممشوق ، عيناها الساحرتان ، تجعل العابر يقف دهشة وإجلالا . دقائق قليلة مضت ، ما لبثت بعدها أن غادرت الرواق متجهة نحو مكتب الإدارة.

ها هي الحصة السادسة _ وقت الظهيرة_ قد انتهت. خرج الجميع، ولا زالت ثريَّا في معمل المدرسة ترتب أدوات التجربة التي قامت بها أمام الطلاب. سمعت صوت رسالة من هاتفها، فتحت الهاتف لتكتشف أنها من _عقيدها_ منصور. هذه أول رسالة يرسلها منذ شهر ونصف. أحبَّته لأنه عقيدها لا أكثر. فتحت الرسالة لتجده يقول : إنه لم يخرج اليوم للعمل، وهو يريد أن يتحدث إليها بالفيديو المباشر. امتعضت لطلبه ، فهو لا يسأل

عنها ويتصل بها إلا عندما تطغى شهوته عليه. رنّ الهاتف فرفضت المكالمة ، لكنه واصل الاتصال بها مرةً أخرى، تردّدت قليلا ثم استقبلت المكالمة. ابتدأ معها الحديث ـ كالعادة ـ بكلامٍ زائف تفضحه ابتسامة كاذبة ، ثم طلب منها أن تخلع ملابسها ليراها، فرفضت بحجة أنها في المدرسة. أخبرها أنه عقيدها وما ستقوم به لا يسيء إليها، فهي كما أخبرته في المعمل، ولتغلق الباب. فكّرت قليلا .. هي لا تريد أن تخسره كما خسرت الذين من قبله ، أسدلت ستار النافذة ، وفتحت شريط عباءتها ليبدو صدرها المكتظ بالبياض، وخلعت خمارها ليرى وجهها المُطهّم ، بدت أمامه وكأنها بائعة هوى على الانترنت مباشرة.

الحارس يريد أن يذهب لشراء القات[1] فموعد قد حان وأكثر شيء يمكن أن ينغّصه هو أن يؤخره أحدهم عن شرائه للقات، ولكن قبل أن يخرج يذكر أن أحدهم ما مازال في الداخل.

(١) شجرة يمنية تستخدم كمنشط

(٢) الوقت الذي يُمضغ فيه القات

ترك البوابة الرئيسية وهو يردد بعض اللعنات التي توحي بعدم رضاه بهذا التأخير، همَّ بالدخول، ورؤية من الذي تسبب في ذلك.

ثريَّا ما زالت تتحدث مع عقيدها.في الحقيقة لم تكن راضيةً عما تقوم به، لكنها لا تريده أن يغضب منها فتخسره. بقي عقيدها يستمتع بجسمها وهي تساعده في ذلك ،وفجأة، سمعت خطوات أقدام يقترب صوتها أكثر فأكثر. أنهت الاتصال بسرعة، ونهضت تهندم نفسها وتصلح ما بعثره ذلك الاتصال؛ حتى لا ينكشف أمرها.

صاح الحارس:

- هل بقي أحد في الداخل؟ . . سأُغلق البوابة الخارجية.

فتحت ثريَّا باب المعمل وكأنها تخبره أن أحدهم ما زال هنا.

تقدم جلال نحو المعمل، وما إن رأته ثريَّا حتى علا محياها الحياء للموقف قائلة:

- عفوا أخ. . .؟

نظر إليها الحارس فتسمَّر مكانه ، ويكأنه لم يتوقع وجود مثل ثريَّا في الداخل، فردّ متلعثما:

- أنا.. اسمي جلال . .نعم جلال.
- عفوا أخ جلال، بعض الترتيبات في المعمل أخّرتني.
- ليس هناك مشكلة أستاذة . .؟
- بالمناسبة، اسمي ثريَّا. الأستاذة ثريَّا.

أخذت ثريَّا تجمع أشياءها بينما نظرات الحارس جلال يتفحص جسمها الجذاب بإعجابٍ باذخ.غضّ بصره بعد نظرةٍ طويلة علتها الدهشة والإعجاب ، شعرت ثريَّا بخطورة تواجده في المكان لوحده ، لذا حاولت أن تسرع ؛ حتى لا يتطور الأمر فيقع ما تخاف وقوعه.

التقطت حقيبتها، ثم خرجت وهي تحمد الله أن الحارس لم ينتبه لما قامت به مع عقيدها وإلا لكانت مصيبة كبرى. أغلق جلال الباب الرئيسي وهو ما زال يتخيل الموقف. حاول تناسي ذلك الجسم الرخو الذي أخذ لب عقله لكنه ما زال يتخيله بكل تقاسيمه وكأنه يفرض نفسه على مخيلته. ما كان يشغل باله كثيرا

هو سبب اتساخ عباءتها بالغبار، فكّر قليلا بالأمر لكنه رأى أن التفكير فيه أمرٌ هيّن،فتناسى ما حصل مدندنا ببعض الأغاني الشعبية، واتجه نحو السوق لشراء حزمة من القات، وسيرجع حتمًا للاستمتاع بمضغه في غرفة الحراسة التي تقطن بطرف ملعب المدرسة، فالأوضاع حرجة بعد دخول الحوثيين صنعاء،(١) وبعد تدخل عاصفة الحزم(٢) في الأمر، فأصبح كل شيء معرَّضا للسرقة والنهب في أي وقت ممكن مع غياب الدولة.

اتصلت بعض صديقات ثريَّا بها للغداء ، فبعد ساعة من الآن لابد أن تكون في مقهى الانترنت ؛ حتى تكمل بحث رسالة الماجستير التي تعمل عليها.

اجتمعت ثريَّا بصديقاتها، فبادرتها هدى إثر وصولها أن قالت:

- حيا الله الأستاذة ثريَّا. .أما ترين أنكِ تأخرتِ اليوم؟

لم تجبها ثريَّا، فقد كانت غارقةً تفكر فيما لو أن الحارس جلال عرف اليوم بأمرها، يبدو أن ملاحظاته للأمور الصغيرة

(١) حدث في تاريخ اليمن (٢١ سبتمبر ٢٠١٤)

(٢) حدث في تاريخ اليمن (٢٦ مارس ٢٠١٥)

قوية جدا، ولو تكرر الأمر مرةً أخرى فربما يُكْشَف أمرها، هذا طبعا إن لم يكن قد أحسَّ بما قامت به اليوم. لا يهمها ما حصل هذه المرة فقد عدَّتها والحمد الله، لكن كيف لو طلب عقيدها منها تكرار العملية مرةً أخرى في المدرسة وعرف الحارس جلال بالأمر، ماذا يمكن أن يحصل حينها ؟ ربما يستغل موقفها، أو ربما يفضحها في المدرسة ! أو ربما . . .

كررت هدى سؤالها بحدة :

- الو . .لماذا تأخرتِ اليوم؟

انتبهت ثريَّا أخيرا لما قالته هدى، وكعادتها تنهد من خلف قلب موجوع، يصحب تلك التنهيدة ابتسامة مزيفة أن ردت:

- أشغال المدرسة يا روحي . . ما نعمل! لكن المعذرة على التأخير.

بدأن يتكلمن عما قمن به ذلك اليوم، بينما ثريَّا تأففت قائلة:

- اليوم غيّروا حارس المدرسة وأحضروا لنا حارسا آخر. .تصرفاته لا توحي بالاطمئنان.

مروى فتاة فضولية وغير محبوبة بين صديقاتها، فضولها الزائد يجعلك تشعر بالغثيان وهي تسألك أسئلتها السخيفة، ومداخلاتها الجارحة، لا يمكن لأحد أن يتحدث في أمر إلا وتعلّقِ عليه أو تستهزئ بصاحبه، لذا ضحكت مازحة:

- أخاف بعد أيام نكتشف أنه الحبيب الجديد.

ضحكن بقية صديقاتها دون أن يراعين مشاعر ثريَّا، فهي للمرة الألف تخبرهن أنها لا تحب الحديث عن ماضيها البتة، فقاطعت الجميع:

- أنا معقودة يا مروى . .دعيكِ من هذه الثرثرة.

مروى:

- اووه . . نسيت أنكِ معقودة . . اعذريني يا روحي . . لكن بالله عليكِ أخبريني، متى الزواج؟ أو أنه قد تزوج عليكِ في الغربة دون معرفتك؟!

قذفت مروى ضحكة مقيتة ، ثم أكملت:

- وفي الحقيقة أخاف أن يتعدى عمرك الأربعين وما تزوجتِ بعد.

ضحكت مروى مع بعض الصديقات بسخرية ، ما جعل ثريَّا تحزن وتغتاظ من ذلك ؛ فتلك الجمل التي ثرثرت بهن قد أحدثن فوضى في نفسها، وكأن بركاناً بداخلها قد تحرك بعد أن كان هادئا، فهي معقودة بهذا المخلوق البشري الذي يُسمى "منصور" منذ بدايات ٢٠١٢، ولَكَمْ كان هذا المقيت سببا رئيسيا في تعاستها وتعاسة عائلتها.ما إن رأت هدى الجديّة البادية على وجه ثريّا حتى زجرت مروى عن الحديث، لكن الأخيرة لم تكفّ، ولم تحتمل ثريّا سخريتها، فامتعضت قائلة :

- بي خوف على "الليم"[١] أما العنب با يرجع زبيب![٢]

قالت تلك الجملة، ثم حدجتهن[٣] وتركتهن ، وغادرت المكان.

(١) الليمون

(٢) مثل يمني، بمعنى "خوفي على القبيح إذا تقدم به العمر أما الجميل يبقى جميلًا"

(٣) حدج : رماه بسهمٍ أو بنظرةٍ حادَّة

-٣-

وصلت ثريَّا المنزل ذلك اليوم لتجد الجميع على غير عادته، الحقائب ممتلئة بالملابس، الأمتعة أمام أبواب الغرف، وكأن العائلة على أهبّة الاستعداد لمغادرة المنزل، فتساءلت:

- ما الأمر؟

ردّ أخوها الأكبر منها ـأمينـ أن صاحب المنزل زاد من مضايقته لهم وحتى أنه تلفظ صباح اليوم ببعض الكلام الجارح، بحجة أن مستأجرا جديدا ينتظر خروجنا، ولذا لابد أن تنقل العائلة على الفور مهما كلفهم الأمر.

تأففت ثريَّا للأمر متسائلة :

- هلّا أخبرتني إلى أين سنذهب؟

- لا يهمني إلى أين سنذهب، المهم هو أن نخرج من منزل هذا النتن[1] الذي نكّد علينا، ومؤقتا سنسكن في بيت عمي حتى نستأجر منزلا آخر، تحرّكوا؛ حتى لا نتأخر.

انتقلت العائلة إلى بيت عم ثريَّا ، ولكن هل يمكن أن يسعهم البيت جميعاً ؟! ، لاسيما والبيت ضيق وفيه ثمانية أشخاص بينهم شابان في ريعان شبابهم ، بالإضافة إلى ثريَّا وعائلتها ، وهل يمكن أن يكون الجو فيه ملائماً لثريا التي لديها كثير من تحضير الدروس، وإكمال رسالة الماجستير ؟

وعلى الرغم من تواضع البيت وقلة غرفه إلا أن عم ثريا وعائلته قد فرحوا بمجيئهم ورحبت بهم في الأيام الأولى ، مثلهم مثل أي ضيف ينزل عليهم ، ولكن مع مرور الأيام بدأت ثريّا تشعر بانزعاج العائلة من إقامتهم معهم، وهي لا تلومهم أيضًا، فقد أصبح البيت المكون من غرفتين إلى جانب غرفة الجلوس مع حمام مشترك مكتظاً بساكنيه ، وأصبح يحوي أكثر من أربعة عشر شخصا. شابَّا العائلة مثلهما مثل أي مراهق، يراقبان ثريَّا في كل الأوقات ، والنظرات تلاحقها عند خروجها من غرفة

(١) كلمة تعبر عن دناءة الفعل لشخص ما

النوم وعند ذهابها دورة المياه وحتى قبل خروجها للمدرسة متزينة، ليس هذا فقط، فحتى أحدهما دخل غرفتها فجأة ، ثم اعتذر بحجة أنه دخلها بالغلط، على الرغم أن تصرفاته البلهاء، وابتسامته المتصنعة توحي بأنه تعمد ذلك، علَّه يرى طرف نهدها الأبيض، أو شعرها الليلي، أو حتى تكور مؤخرتها من خلف ملابس النوم. في الحقيقة لا لوم عليه، فثريَّا فتاة لا يهدأ بال رجلٍ رآها تسكن بجواره، فكيف بمراهق تسكن معه في البيت نفسه!

مع ذلك على الرغم من الآلام التي يحمله قلبها إلا أنها تشعر ببعض الاطمئنان مع وجود أخيها، والذي يحاول أن يوفر للعائلة من معاشه إيجار المنزل وثمن صهريج ماء ، وبعض أدوية الوالد الذي يشتكي من مرض السكر.

دوما تقول لصديقاتها أن الأخ بالنسبة للأخت مثل العمود الفقري بالنسبة للجسم، بدونه يبقى الجسم هامدًا لا يتحرك.

نزل الظلام على المدينة تلك الليلة كملكٍ طاغية، دويُّ الانفجارات تضجُّ بالمكان، وأصوات الرصاص كالعادة يخيف ساكني البيوت، يصحبهما صراخ الأطفال وبكاء النساء، بينما

يردد كبار السن الأدعية بالسلامة للعائلة. نادت ثريَّا أخاها ـأمينـ لتتكلم معه في أمرٍ ما على انفراد، دخلا مطبخ العائلة؛ لأنه المكان الأنسب للحديث فيه، لعدم تواجد أي أحد بداخله في هذه اللحظة:

- أخي. .! كما ترى طال مُقامنا عند بيت عمي، وأشعر أن العائلة منزعجة من تواجدنا، ولابد أن نبحث عن منزل في أقرب وقت ممكن، فأنا أنام في غرفة فيها أربعة أشخاص يا أخي . .عجزت عن فعل أي شيء.

تأفف أمين للأمر، ليخبرها أن الإيجارات غالية جدا، وأن أصحاب البيوت يطلبون الإيجار مقدما. أطرق قليلا يفكر، ثم أكمل:

- ومع ذلك يا أختي ما المشكلة لو تقاسمنا الإيجار أنا وعمي، فنسكن معهم عدة أشهر حتى يفرّجها الله؟

غاضتها الفكرة، فردت:

- لن أقبل بهذه الفكرة أبدا، وأطلب منزلا خاصا بنا، وفي أقرب وقت ممكن، أو ما عرفت بعد أن ماجد ـابن عميـ دخل غرفتي اليوم ثم قال أنه عملها بالغلط . . هاه.

اغتاظ أمين لما سمعه، فاتفق مع ثريَّا بعد حوار طويل أن يبيع القليل من ذهبها، ويستأجر منزلا مُقتدرا عليه مهما كان الثمن، وفعلًا استأجر المنزل في اليوم التالي فنقلت العائلة، وتغيبت ثريَّا عن المدرسة لانشغالها مع عائلتها بالنقل،وترتيب منزلهم الجديد.

***

الفصل الثاني

-١-

أشرقت شمس ذلك اليوم على مدينة صنعاء اليمنية ترسم بخيوطها الذهبية المشعة يومًا جميلا، ولكن ليس للفقراء يا عزيزي، فالفقير هنا شمسه مغيبة دوماً كغياب عقيد ثريَّا عنها.

خرجت ثُريّا ذلك الصباح وجسمها مليءٌ بالنشاط، إنه ربيعها الحادي والثلاثون، هي تعرف أنها نالت إعجاب كل من عرفها، ولكن الإعجاب وحده لا يكفي، فهي تصبو للزواج وبناء عائلة تعوِّضها عن الشقاء والتعاسة التي عاشتها طوال تلك السنين التي مضت من حياتها دون أن تشعر بالراحة المأمولة حتى اللحظة.

ذهبت نحو المدرسة كعادتها. تحمل خلف كل ذلك الجمال آلامًا كثيرة، فتحاول تجاهل تلك الآلام كلها بوضعها سماعة الهاتف على أذنيها، تتنقل بين سماع أغانٍ لبعض الفنانين العرب

وغير العرب، ولا يُعرَفُ حقيقة ما إن كان يروق لها سماعهم أم أنها تقلد الآخرين في ذلك وحسب.

وصلت المدرسة لترى الحارس جلال بقامته العالية واقفًا على البوابة الرئيسية يستقبل الطالبات، ويمنع كل من يهم بالدخول من الشباب الطائش أو الشحاذين وبعض باعة الآيسكريم. ألقت عليه التحية كعادتها برغم أن أكثر الداخلين لا يلقون عليه التحية، فبادرها:

- أستاذة ثريَّا! منذ يومين ما رأيتُك في المدرسة . . هل هناك مشكلة؟

ارتاحت ثريَّا في قرارة نفسها لسؤاله عنها ، لكنها أبدت عدم الاكتراث بذلك ، فردّت :

- لا . . لا يوجد مشكلة.

في الحقيقة ارتاحت ثريَّا لسؤال الحارس جلال؛ لأنه قلَّ في هذا الزمن من يسأل عن حالك إن تغيَّبت، أو يفكر فيك إذا تأخرت، فما دمت فقيرا فأنت تعيش في هامش الزمن، خصوصا والبلد في حال حرب عبثية ، ولئن تجد شخصا يسأل عنك وعن

أحوالك فهذا يعني أنك محظوظ جدا، ولكن يا تُرى هل كان سؤال الحارس جلال عن أحوالها لجمالها أم أنه من باب الإنسانية المحضة ! ليس ذلك هو المهم ، بل إن المهم في الأمر أنه اهتم بها وسألها عن حالها أيًا كان الغرض.

بعد أن رأى الحارس جلال انزعاجها من سؤاله قرر أن لا يكمل ما كان يريد قوله، في حين لا يعلم أنها شعرت بسعادة تغمرها ذلك اليوم؛ لأنها بدأت يومها بشخصٍ سأل عنها، أفضل من عقيدها الذي لا يسأل عنها إلا عندما تشتعل شهوته.

تنتهي ثريا من إلقاء الدرس الأخير في ذلك اليوم، يأتيها اتصال مفاجئ ، أخرجت هاتفها لتجد المكالمة من عقيدها. قالت في نفسها "حتمًا أن شهوته قد طغت عليه" رفضت المكالمة، وأرسلت رسالة قالت فيها أنها في المدرسة، وأن المرة السابقة كاد أمرها أن ينكشف. أصرَّ عقيدها على أن يتكلم معها. أخرجت تنهيدة مليئة بالحزن، ثم دخلت المعمل وأغلقت الباب بالمزلاج، ولبّت له طلبه. استمتع بجسمها حتى أخذ مراده، ثم أنهى الاتصال دون أن يودِّعها بكلماته الأخيرة. كانت تحاول أن تستمتع هي أيضًا لكنه كان أنانيًا أكثر من اللازم، لا يحب

سوى نفسه، لذا يتصل بها وقتما يريد فيستمتع بجسمها ثم ينهي الاتصال ويذهب بينما هي تتألم لحالتها المرثية تلك. في كل مرةٍ يتصل بها تطلب منه أن يخرج من غربته فيتزوجا، وإن أراد العودة بعد ذلك فليعد، لكنه لا يكترث لرغباتها ومُرادها.

خرج الجميع ولم يبق سواها في المدرسة، كانت أكثر ارتياحًا مع الحارس السابق ـالحاج أحمدـ من جانب استخدام المعمل بحرية.

ها هو الحارس جلال يتضجّر لتأخره عن سوق القات، وبدأ يستطلع المكان، فجأة، رأى أن ثريَّا ما زالت في المعمل. اقترب من المعمل فوجدها ما زالت هناك . . تأملها قليلا فشعر بأنها مرتبكة وحركات يديها غير متزنة، حتى أنها أسقطت أنبوب التجارب على الأرض، فانكسر، حاول الدخول لمساعدتها لكنها أشارت بيدها أنها ستحل الأمر بنفسها. كان الموقف غريبًا بالنسبة للحارس، نظرت إليه ثريَّا ووجنتاها محمرتان من الخجل وهي تقول في نفسها "يا إلهي! ما هذه الرهبة التي تطرأ على المرء عندما يختلي بشخصٍ ما!"

لم ترتب ملابسها جيدًا بعد أن أكمل منصور استمتاعه بجسمها حتى أن الحارس جلال لاحظ ذلك. حاولت كسر تلك الرهبة فقالت:

- أخ جلال! شكرًا لك . . أسعدتني اليوم بسؤالك في الصباح، كنت في أمس الحاجة لسماع شخص يسألني سؤالك عني، وأتمنى أن لا تفهمني خطأ.

- هذا واجبي أستاذة ثريَّا و . . .

حاول أن يكمل لكن عباءتها شدّت انتباهه، كأنها جلست على الأرض فلصق بها غبار. خافت أن يلاحظ الحارس توتر حركاتها، فرأت أن تصرف نظره عنها أن قالت:

- أعتذر . . يبدو أنني أخَّرتك عن عملك.

كانت تصرفاتها غريبة، لم تتوقع أنه سيداهمها مرةً أخرى؛ فالحاج أحمد كان يمنحها الحرية الكاملة في طريقة استخدام المعمل، أما جلال فنظراته فاحصة، يلاحظ كل ما يدور حوله وكأنه يؤدي واجبًا عليه.

ما إن غادرت ثريَّا المدرسة حتى أخرجت نفسًا عميقًا تشكر الله لعدم معرفة الحارس بما حصل مع عقيدها للمرة الثانية ، على الرغم من أن شكوكه في أمرها بدأت تزداد كما يبدو.

بينما هي تمشي في الشارع متجهة نحو المنزل شدها صوت بائع المجلات وهو يبيع الأخبار الزائفة، تذكّرت أن زجاج نوافذ المنزل متسخة، فاشترت بعضًا منهن.

كانت على متن الباص الذي سيوصلها إلى المنزل. حاولت أن تتحاشى ضجة المكان بقراءة المجلة، فوقعت عيناها على السطور الأولى :

" الحوثيون يشددون النقاط التي توصل العاصمة صنعاء ببقية المحافظات بعد سماعهم أن هناك شخصيات مجهولة تحاول التسلل للمدينة لنقل الأخبار، ويتوعدون بمعاقبة كل من يتورط في مثل هذه المهمة. . "

جالت بفكرها قليلًا تفكّر في تصرفات جلال في المدرسة، وقوة نباهته للأمور ، وهي تقول في نفسها "ماذا لو أن الحارس

جلال أحدهم؟" شردت تفكر في الأمر ولكن وصول الباص إلى المكان الذي كانت تريده قطع عليها حبال تفكيرها.

دخلت المنزل فاستقبلتها _أختها الصغيرة_ شيماء:

- صرنا جائعين يا أختي . .لماذا تأخرتِ؟

تأففت ثريَّا،ثم قالت:

- ولماذا لم تطبخي لكم غداء؟ لقد أصبحتِ _ ما شاء الله _ فتاة كبيرة.

- كيف أطبخ ولا يوجد غاز؟ لقد انتهت اسطوانة الغاز وأنا أجهز الشاي لأبي.

تأففت ثريَّا لمسألة انعدام الغاز، ثم قامت بتجهيز بعض الحطب؛ حتى تحضر الغداء للعائلة.

بعد أن تناولت العائلة غداءها دخلت ثريَّا غرفتها الخاصة، رمت الجرائد جانبا، وجلست على السرير. جالت بعينها من نافذة الغرفة نحو الشارع لترى رجلًا يمشي بجانب زوجته، ممسكاً بيدها وهما يتبادلان الهمسات والابتسامات. سرحت بخيالها الجامح

بعيدا وعيناها ما زالتا على الشارع والأطفال يلعبون هنا وهناك .
.تقول في نفسها " ياه. .! ماذا لو يرجع منصور من غربته فنتزوج، سأكون حينها أسعد إنسانة على وجه هذه الأرض" كانت متلهفة لتعيش حياتها الزوجية بهدوء، لا تريد أن تكون مجرد وسيلة لأحدهم، يستمتع بها ثم يتركها . . لا تريد أن يحتقرها الآخرون كونها تعدت سن الثلاثين ولم تتزوج بعد، فهي تعلم جيدا أن تأخرها في الزواج يزيد يومًا بعد يوم من نسبة دخولها في عداد النساء المتصفات بالعنوسة.

أخرجت تنهيدة طويلة ، مملؤة بالحزن ، ثم عادت إلى خيالها مرةً أخرى وبَدأتْ تفكّر هذه المرة وكأن بداخلها مارداً يتحدث إليها:

أتذكرين قبل أربع سنوات يا ثريَّا عندما عقد بك منصور وسافر دون أن يدخل عليكِ؟ لم يعد حتى اللحظة . . أليس كذلك؟ ماذا لو أنه بجانبك الآن!! هل كنتِ هذه المهيضة التي لم تجد من تركن رأسها عليه لتخفف من فزعها؟ هل فكَّرتِ ما لو أنه تزوج . . فالرجال خونة، وضعفاء ـ كما يقولون ـ ماذا لو أنه قرر أن يمكث هناك ولم يعد، هل ستنتظرينه حتى تشيبي ، ثم تموتين ولم

تتذوقي لذة النوم على صدر رجل؟ لو تعرفين لذة النوم إلى جانب رجل لما صبرتِ كل هذه السنين.

هل تعرفين كم أصبح عمرك الآن يا ثريَّا؟ لقد بلغتِ الواحدة والثلاثين ولم يأتِ منصور بعد.

أخبريني . .هل تقلقين بشأن المستقبل؟

لا تقلقي بشأن المستقبل يا عزيزتي، سيكون كئيباً و سيئاً كما الماضي ..الفرق أنكِ ستعتادين على كل شيء فيه.

ظلّت تسرح في خيالاتها وتحملق في الجدار، ولم تشعر بنفسها إلا بعد أن سقطت من عينيها دمعة حارّة مسحتها بهدوء.

-٢-

الحارس جلال ما زال يفكر في تصرفات ثريَّا الغريبة "لماذا كانت مرتبكة إلى ذلك الحد؟ ولماذا كانت عباءتها متسخة وملابسها غير مرتبة، رغم أنها دخلت المدرسة أنيقة؟" ليست المرة الأولى التي يلاحظ الحارس جلال فيها اتساخ عباءتها، مما زاد من حيرته.

مع إصرار منصور تكررت العملية مع ثريَّا أكثر من مرة، بينما الحارس جلال يلاحظ تصرفات غير طبيعية تصدر منها وكأنها تستغل المعمل في أمور أخرى. قرر هذه المرة أن يعرف السر بأي وسيلة متاحة. انتظرها حتى انتهى الدوام ثم ذهب نحو المعمل كعادته. دفع الباب دون سابق استئذان حتى انفتح. يا للمصيبة! لقد نست هذه المرة أن تغلقه بالمزلاج. نظر إليها الحارس ليجدها جالسة على الأرض وبيدها الهاتف، صدرها المكتظّ بالبياض وثدييها الناهضين المستديرين لا يغطيهما تلك الملابس الأنيقة التي أتت بهن في الصباح. يا للمصيبة! لقد رأى نهديها المشدودين وهما يعتليان صدرها. .رأى وجهها الأبيض،وتلك

الحمرة التي تكسوه، وتلك الشفتان الحمراوان الرقيقان. ارتبكت ثريَّا واضطربت حركاتها. بحركات متخبّطة حاولت أن تستر نفسها لكنه رأى ما لا يجب أن يراه رجلٌ من امرأة. هو أيضًا ارتبك حينها . . لم يكن يتوقع يومًا أن يجد مثل ذلك الجمال الباذخ معروضًا بتلك الطريقة. أغلق الباب بسرعة وكأنه بذلك قدَّم لها معروفا، فغطت ما كان مكشوفا.

يا ربّاه! ما أصعب أن توضع المرأة في موقفٍ يمسُّ بكرامتها! إنها لتفضِّل أن تموت من أن تعيش الموقف. غاظ جلال الأمر رغم أنه كان باستطاعته استغلالها، إلا أنه لم يفكر بذلك، ولم يكن يعرف أيضًا أنها معقودة.

لقد كان جسمها يتقطع من الخجل. لم تجرؤ أن تخرج من المعمل ..كيف لها أن تواجهه وقد رآها بهيئة ما توقعت أن يراها بمثلها أحد يوما ما؟! بدأت تبكي وتتمتم ببعض اللعنات على منصور، الذي بسبب إصراره حصل لها كل ما حصل. خرجت مليئة بالخجل، لم تستطع رفع طرفيها، فقالت بصوتٍ خافت متهدّج:

- أرجوك أخي جلال . . لا تسيء الفهم. .

كان الحارس جلال يشعر بأسف على ما حصل أمامه، فقال:

- ما كنت أتوقع أن فتاة مثلك تعمل مثل هذا العمل. . ومدرِّسة أيضا . . وفي المدرسة! أقل القليل احترمي المدرسة يا أستاذة ..ثريَّا.

سمعت تلك الكلمات كطعنات قاتلة وُجِّهت إليها ، تبكي بحرقة ، تحاول أن تشرح سبب كل ما حصل ، لكن الموقف لم يسمح لها أن تنبس بكلمة. ارتفع بكاؤها وكأنها تترجاه أن لا يخبر أحدا. أخرجت من حقيبتها ورقة وقلم وترّجته أن يعطيها رقم هاتفه، فهي لن تجرؤ على الحديث أمامه بعد كل ما حصل، أملى عليها الرقم فكتبته، ثم دسّت الورقة في حقيبتها وأخبرته مرةً أخرى أنها لم ترتكب خطأ، وستخبره بكل شيء عبر الهاتف وحينها سيعرف الحقيقة.

وصلت إلى المنزل تبكي، لم تستطع تصوّر ما حصل لها اليوم، قلبها يرجف من الخوف ووجهها يتقطع من الحياء، كيف لها أن تمشي أمامه في الأيام القادمة وقد رآها بتلك الهيئة؟ أخذت الهاتف وبدأت تكتب:

- أخ جلال . . أعتذر لما حصل اليوم. قصتي طويلة جدا. باختصار، أنا معقودة وعقيدي في الغربة، وقد كنت وقتها أتحدث معه . . غصباً عني. أرجو أن تعذرني؛ لأن ما حصل كان خارجا عن إرادتي.

كأنه قَبِلَ اعتذارها، فبدأت تتكلم معه عن بعض أمورها اليومية؛ حتى تزيل ذلك الشعور الذي ما زال يؤلمها جرّاء الموقف. كان الحارس جلال أيضًا لديه الفضول لمعرفة قصة حياتها الطويلة، وقصة تلك الحركة التي عملتها غصباً عنها.

رجعت نحو عقيدها لتلومه على تصرفاته الرعناء ، وأنانيته المقيتة ، وغيابه المستمر. إنه قاس في مشاعره معها ؛ يأخذ منها ما يريد ثم يتركها ويذهب. لم يرد على رسائلها منذ أيام رغم تواجده على الانترنت، مرّات ومرّات تترجاه أن يعود من غربته حتى يتزوجا، لكنه لا يكترث لأمر الزواج. لقد صبرت عليه سنين طوال، وضاق بها الحال ذرعًا، فقررت ذلك اليوم أن تشكوه لأخيها ـأمينـ علّه يجد لها مخرجا. ما إن عادت إلى المنزل حتى سحبت أخاها نحو غرفتها وبدأت تحادثه في موضوعها:

- اسمع يا أخي . .سأدخل سنتي الخامسة وأنا معقودة لكن في الحقيقة بلا زوج، وكما تعرف منصور غير مبال بي أبدا، لا بد أن نتصرف معه التصرف المناسب؛ لأني أشعر بفراغ داخلي كبير جدا . .كل صديقاتي يعيرنني بأني متزوجة، ولكن بلا زوج.

علامات الغضب بادية على أخيها بعد سماعه كلامها، فرد:

- لقد بُلينا بها يوم قبلنا به زواجا لك يا ثريّا، هذا الزفت[1] ابن الزفت الذي لا يحترم عادات ولا تقاليد ولا قَبْيَلَة[2].

نظر أمين نحو ثريَّا فسكت قليلًا، ثم سألها بصوتٍ خافِت:

- هل لا زلتِ تحبينه؟

استغربت لسؤاله:

- ولماذا؟

- غدًا سأقدّم ملفا باسمك للمحكمة بطلب الطلاق . . هل أنتِ موافقة ؟

(١)شتيمة تحمل معنى الاحتقار

(٢) الانقياد لقوانين القبيلة وعاداتها

لم يعجبها أمر الطلاق، فما أسهل أن تطلَّق المرأة هنا، لكن قد يصعب أن تجد من يطلبها بعد ذلك للزواج، فاحتمال أن تبقى عانسة كبير جدا، إضافة إلى النظرة السلبية والمهينة لكل امرأة مطلقة من قبل المجتمع، واعتبارها ناقصة أو غير صالحة لأن تكون زوجةً لرجلٍ آخر؛ لذا رفضت فكرة الطلاق. أرادت أن تخبره أن عمرها قد تعدى الثلاثين، لكن الخجل انتابها، في حين نبه لذلك أخوها فقال:

- ولا تخافي أبدا . . فتاة جميلة ومتعلمة مثلك، ألف رجل يتمناك.

تقول في نفسها "أكبر كذبة سمعتها في حياتي أن يقول أحدهم بأن ألف شخص يتمناني، لا أريد ألف رجل؛ كل ما أريده هو رجل واحد أعيش معه الحياة بهدوء".

رفضت ثريَّا فكرة تقديم ملف الطلاق إلى المحكمة، وفضَّلت أن تتصل بمنصور وتخبره بما يفكر فيه أخوها، علّه يراجع نفسه، ويرجع لعمل حفلة الزواج.

انتظرت حتى الثامنة مساء، فهذا هو الوقت الذي ينهي فيه منصور عمله ـ كما أخبرها من قبل ـ وأرسلت له رسالة:

- حبيبي منصور..كيف حالك؟

رغم أنه كان نشطا على الانترنت إلا أنه لم يرد على رسالتها إلا الساعة الحادية عشرة:

- بخير الحمد لله.

رأت ثريَّا الرسالة من خلفية الهاتف، انفرجت أسارير وجهها، وبسرعة فتحت المحادثة:

- لماذا كل هذا الغياب حبيبي؟ من أجلكِ قمت بكل شيء ولم أطلب منك أي شيء، برغم أنه كان يجب أن ترسل كل شهر ٢٠ ألف ريال "نفقتي" على الأقل باسم أني زوجتك، ولبيت لك كل رغباتك، لكن تغاضيت عن كل هذا وما طلبت منك سوى أن تأخذ إجازة ، ولو لأسبوع واحد ، نقيم فيه حفل الزفاف ، ثم ترجع إن شئت. لو عرفت كم تعيرني العائلة وصديقاتي لما أطلت بغربتك .. ارحمني يا منصور.

برغم أنها لم تعد تحبه إلا أنها ما زالت تستخدم كلمة "حبيبي" حتى تستلطفه. انتظرت خمس دقائق ولكن دون أي رد:

- منصور . . لو سمحت كلّمني، هل أزعجتك بشيء أو نطقت بكلمة لم تعجبك؟

بعد نصف ساعة أتاها الرد:

- أهلا ثريَّا .. لو تشوفي كم أنا مشتاق لرؤيتك .. هل بإمكاني أن أتصل بك فيديو؟

عرفت غرض رسالته تلك، لكنها لم تكسر بخاطره، ولبّت له طلبه علّها تستلطفه وتطلب منه العودة فيقبل. اتصل بها كعادته، فجرّدها من ملابسها واستمتع بجسمها حتى قضى غرضه منها. أرادت ثريَّا أن تخبره بأمر حفل زفافهما، لكنه تجاهل كل هذا بقوله:

- للأسف حبيبتي مرهق من العمل الآن، أتحدث إليكِ مرة ثانية إن شاء الله .. تصبحين على خير.

هي تعرف أنه ليس مرهقا، فهذه ليست المرة الأولى يتصرف معها بهذه الطريقة، منشغل في الصباح ومرهق في المساء، وعندما تطغى عليه شهوته يتصل بها، ويذكّرها بأنه زوجها.قرأت عليه بعض اللعنات وهي تضع سماعة الهاتف على

أذنيها، فتحت موسيقى هادئة، استمعت إليها حتى هدأت، ونامت.

-٣-

تطورت علاقة ثريَّا مع الحارس جلال بقدر ما زادت بعدًا عن عقيدها منصور وزاد من حبها له بمقدار ما زاد من كرهها لتصرفات عقيدها الأبله، إن الحارس يساعدها وكأنه أخوها الأكبر، وهي في الحقيقة لا تعلَم إن كان له من وراء كل هذا مصلحة أم لا.

في يوم من الأيام، وقبل أن تُقدم ثريَّا رسالة الماجستير بشهرين كانت عائلتها تمر بأزمة مالية غير متوقعة، فخالة والد ثريَّا الصحية في الأيام الأخيرة غير متزنة مما اضطرت العائلة إلى إجراء عدة فحوصات طبية وأخذ مجموعة علاجات كلَّفتهم مبالغ ليست بقليلة بالنسبة لعائلة ثريَّا الفقيرة، إضافةً إلى ارتفاع الأسعار بشكل خيالي، وهبوط الريال اليمني ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل.

ثريَّا تحتاج بعض النقود؛ من أجل تجهيزات رسالة التخرج، ولكن من أين لها ذلك وعائلتها المسكينة لا تجد قوت يومها إلا بعد شق الأنفس، وغالبًا ما يكون ذلك من معاش أخيها ـأمينـ والذي يعمل حاليًا كحارس أمن في إحدى المحلات التجارية؟!

في تلك المدة كانت ثريَّا قد اقتربت من الحارس جلال إلى درجة تسمح لها بأن تطلب منه بعض احتياجاتها على وجه السلفة. أخبرته باتصال هاتفي أنها بحاجة لبعض الأموال لتغطية احتياجات مناقشة الرسالة، وستعيدها في أقرب وقت ممكن، فأعطاها المبلغ وقام بتغطية كل متطلباتها. فاجأها تصرفه ذلك، وبدأت تشكَّ بتصرفه كحارس مدرسة فقط؛ لإغداقه عليها بالأموال في كل مرة تكون فيه بمأزق، برغم أن معاش الحراسة يعتبر لا شيء مقابل ما ينفقه على "القات" وأشيائه اليومية . . ليس هذا فقط، ماذا لو أنه يعول عائلة مكونه من عشرة أفراد وأكثر، ففي اليمن أن يكون لديك فوق العشرة أبناء أمر طبيعي للغاية، فالنساء هنا كالآلات المنتجة إن صح التعبير، لا يكاد يمر العام الواحد بالرضيع حتى يبشِّر المولود الآخر بالمجيء.

فكرت قليلًا في الأمر ثم تجاهلته وذهبت.

-٤-

إنها الحادية عشرة قبل الظهيرة، الشمس تحرق الجلود والناس يمشون في الشوارع كالسكارى، وقد لا نبالغ حين نصفهم بهذا، فما يحدث في هذا البلد من مجازر، واعتقالات، وارتفاع في الأسعار يجعل الولدان شيبا. خرج الحارس جلال لأخذ كارت شحن ،وفجأة، شده تصرف شخص لا يعرف إن كان مجنونًا أم أنه يدّعي الجنون. نظر مرةً أخرى نحو الرجل المجنون وعليه تلك الثياب الرّثة، وأظافره المتسخة تنهش في شعر رأسه المبعثر، وهو يردد:

"علي له وعلي له وعلي ما شي له . .أيووووه" (١)

اقترب منه وكأنه يحاول التعرف عليه، ولكن الرجل هرول حتى اختفى بين الزحام. ما زالت تلك الجملة تطرق مسامع جلال " علي له وعلي له وعلي ما شي له . .أيووووه"

(١) مثل يمني شعبي، يُقال عندما توجد العشوائية وعدم المساواة.

لم يهتم كثيرًا لذلك المجنون، فالمجانين هنا كثر، وقرر أن يذهب نحو السوق لشراء القات كعادته. أسعار القات هذا الأسبوع مرتفعة جدا، لكنه رغم هذا اشترى بكل ما تبقى في جيبه من أموال حزمة من القات الرديء ثم عاد. وهو في طريق العودة خطر على باله ذلك المجنون وجملته التي ما زالت تتردد في أذنيه. ها هو ذاك المجنون يصادفه من جديد، ولكن جلال قرر هذه المرة أن لا يفلته من يده، فتبعه حتى وجد الفرصة المناسبة، ثم وقف أمامه وكأنه يتفقد ملامحه، فقال:

- أظنني رأيتك من قبل .. ولكن بغير هذه الهيئة!

حاول ذلك المجنون التهرب، ولكن جلال تبعه.

- أجبني! كأني قابلتك في أحد الأماكن من قبل بهيئةٍ أخرى. . من تكون؟

فرَّ المجنون هاربًا نحو زُّقاقٍ صغير، اختفى ما بين بنايتين وهو يلقي جملته المشهورة بينما أظافره تنهش شعر رأسه المبعثر، ولكن جلال تبعه أيضا. واجه ذلك المجنون ومسك بكتفيه بقوة:

- لن تفلت هذه المرة قبل أن أعرف من أنت.

نظر الرجل الذي ـ كان قبل قليل مجنونًا نحو جلال ـ ثم قال بحذر:

- احذر يا جلال، الأعين تراقبك في كل لحظة . . أدنا غلطة ربما توديك في ستين داهية.

نظر إليه جلال مدهوشا:

- من أنت؟ ومن أين تعرفني؟

- لا عليك من أكون ولا كيف عرفتك، ولكن الأمور في صنعاء لا تطمئن يا صديقي، والجهة التي تعمل ضدهم ربما يعرفون عنك في أي وقت، فالحذر الحذر.

حاول جلال أن يسأله عن الجهة التي يعمل لصالحها، لكن صديقه المجنون نَفِدَ وقته كما يبدو:

- جلال! أنا معك لا ضدك، واحذر إن رأيتني في أي مكان تتصرف بحماقة مثل تصرفك اليوم فتحاول التحدث إلي فينكشف أمري وأمرك، لكن إن احتجت إليَّ في أمرٍ مهم جدا فستلقاني في هذه الشوارع ، وبهذه الهيئة.

ذهب ذلك المجنون تاركًا قلب جلال يتوجس من الخوف، فبدأ يفسر كل شيء أمامه أكثر حذرًا من ذي قبل. رن هاتفه وإذ بها الأستاذة ثريَّا. فتح الخط ليسمعها تقول:

- أخي جلال! غدًا سأناقش رسالة الماجستير، وكل شيء على أتم الجاهزية ، هلّا شرفتني بحضورك؟

ما زالت كلمات صديقه ـالمدعي للجنونـ تتردد في أذنيه وهو يقول أنه مراقب وربما يتم كشفه في أي وقت. فكر قليلًا ثم قال:

- لا أعدك أستاذة ثريَّا ، لكني سأحاول.

ذهبت ثريَّا في اليوم التالي، وناقشت رسالتها التي كانت تتحدث عن دراسات الجدوى لتطوير التعليم في اليمن أمام مجموعة من أساتذته الجامعة، ولكن للأسف الحارس جلال الذي يسأل عن حالها دومًا، ويقوم بمساعدتها في حل مشاكلها لم يأت. حزنت لذلك، فصبرت حتى حل المساء، وأرسلت رسالة تسأله فيها عن سبب عدم مجيئه، فتعذر لها بأن أمرًا طارئًا حدث وكان لابد أن يقوم به.

بدأت ثريَّا تتعلق بالحارس جلال رغم أنها معقودة،فقد أحسَّت منه الاهتمام الذي كانت تفتقده.كانت تشعر حال التعامل معه بالرضى والهدوء الداخلي عندما يقوم بحل مشاكلها ومساندتها في أوقاتها العصيبة ، وهذا ما جعلها تشعر بالأمان بوجوده، فالمرأة كي تحب شخصًا ما لا تنتظر منه سوى شيئين لا أكثر، وهما الاهتمام والشعور معه بالأمان. أخبرته في رسائلها الأخيرة بأنها ممتنة له كثيرًا ولابد أن ترد له الجميل. أحس الحارس جلال بأن ثريَّا تتصرف وكأنها تحبه، هو أيضًا بدأ يحبها ولكنه لا يريدها أن تقترب منه أكثر، فهي معقودة، إضافةً إلى خطر العيون التي تراقبه في كل مكان. ما زال الهاتف يرطن ببعض الأغاني الشعبية المفضلة لديه، أوقف صوت الهاتف وتململ نحو غرفته للنوم.

-٥-

دخل أكتوبر/تشرين الأول لعام ٢٠١٦ بكل كبريائه، بكل مواجعه وآلامه وكذلك بكل ذلك الحب الذي يحمله. ثريَّا تشعر بالضياع الداخلي مع تجاهل عقيدها لها. ربيعها الواحد والثلاثون على وشك الانتهاء ولم تتزوج بعد ـفي حقيقة الأمرـ فقد كانت تقول لبعض صديقاتها من باب المزاح أنها متزوجة بلا زوج مثلها مثل اليمن دولة بلا حكومة. فتاة باذخة الجمال تصل إلى هذا العمر ولم تتم مع رجلٍ من قبل يعتبر انتحار عاطفي. . إنها جريمة .. جريمة أن تتقلب على فراشها كل ليلة تتمنى أن تجد من تأوي إليه. . أن تجد من تفرِّغ أمامه كل ما بداخلها من عواطف وكلمات،ثريا تفتقد إلى رجل يقف أمامها، فيبعثر خصلات شعرها ويمسح على خدها ويخبرها أنها لن تتألم بعد اليوم، وأنها لن تشعر بالبؤس من تلك اللحظة. كيف لها أن تهدأ وهي تشعر باضطرابات داخليه، وكأنها تعيش حرباً أهلية ، ما بين البحث عن الرزق وبين البحث عن الحب . . عن صدرٍ تضع خدها عليه .. عن رجلٍ تثرثر له بكل ما يدور في خلدها مرة، ومرة تقبّله

بلذة فتفرغ ما يثقل عقلها وقلبها، وتقف أمامه بقوّتها وضعفها، لكن من لها بذلك!

جمالها الباذخ أسرَ قلب الحارس جلال وجعله يهتم بها أكثر. قرر أن يقترب منها حتى تحبه هي أيضا، فيخلّصها من عقيدها الذي يكذب عليها في كل مرةٍ يعدها بشيءٍ ما.

***

الفصل الثالث

-١-

كان ذلك اليوم هو الثاني من أكتوبر/تشرين الأول لعام ٢٠١٦، كعادتها ثريَّا مع بداية الأسبوع لبست أجمل ما لديها ثم ذهبت نحو المدرسة. ألقت التحية على الحارس جلال مع ابتسامة جذابة ثم دخلت. إنها لا تعرف أن الحارس جلال يحبها ولكن لديه ما يخوّفه من مسألة الاقتراب منها. انتهت دروس ذلك اليوم ولم تخرج ثريَّا من معملها كالعادة.

ها هو جلال يتفقد المدرسة كعادته قبل أن يذهب إلى سوق القات ليجد ثريَّا بلباسها الأنيق وتلك العينين الساحرتين ما زالت في المعمل، فوجد في ذلك فرصته للبوح ببعض ما يشعر به.

- أستاذة ثريَّا!

التفتت وكأنه فاجأها بمجيئه:

- جلال! المعذرة، دومًا أتسبب في تأخرك.

سكت للحظة ولم يعرف ماذا يقول، ثم نطق قائلاً :

- لا عليكِ أستاذة ثريَّا. خذي راحتك، سأكون بانتظارك حتى تنتهي من عملك.

لم تكن تعرف أنه يريد أن يخبرها أنه معجبٌ بها رغم أنها معقودة. كانت ترتب أدوات المعمل على عجل، انحنت تأخذ قطعة ـسقطت منهاـ فانكشف نصف ذلك الخمار ليكشف خدًا أسيلًا يسكر الناظر إليه. اقترب جلال نحو ثريَّا بتوتر ثم قال:

- أستاذة ثريَّا ! ما شاء الله. .كم أنتِ جميلة وأنيقة !

لا يعرف كيف نطق تلك الكلمات لكنه قالها. نظرت ثريَّا نحوه فخجلت لما سمعته وكأنها تشكره بتلك النظرة، شعرت وكأنه يلمح بحبه لها، ورغم أنها تكن له الكثير من الحب إلا أنها ما أرادت أن يحبها. أحس جلال أنها أرادت أن تقول شيئًا وامتنعت، فأردف قائلا:

- أستميحك عذرًا إن سألتك، هل ما زلتِ تحبين عقيدك؟

أخرجت ثريَّا تنهيدة من جوف صدرها الممتلئ بالتعاسة والحزن، ثم قالت:

- ربما ..

لم يفهم جوابها، فسألها ثانيةً:

- ماذا تقصدين؟

- لا أريد أن أجلب لك التعاسة، فأنا امرأة تعيسة يا جلال، لذا أنصحك أن تدعني وشأني.

- ثريَّا! لا أخفيك أني معجب بشخصيتك، وربما أقول إني أحبك .

.

هي لا تريده أن يحبّها، فحياتها لا تسمح له ولها بذلك، لكنه قال ما قال:

- لستُ الفتاة التي تستحقها يا جلال، إني متخبطة أكثر مما يمكنك تخيله.

- لا يوجد شيء لا يمكننا تخيله، خصوصًا وأننا نعيش في اليمن.

كان ـمن قبلـ لديها الفضول للتعرف على جلال أكثر، فاتخذتها فرصة لمعرفة ذلك:

- ولكنك لم تخبرني عن نفسك، فأنا لا أعرف سوى اسمك، وأنك حارس في المدرسة.

يريد أن يخبرها أنه يعمل كحارس في المدرسة، وفي الوقت نفسه يعمل لصالح جهة معينة، لكنه لم يعرفها بعد حق المعرفة، فهو لا يعرف عنها سوى أنها الأستاذة ثريَّا الجميلة التي تعمل كمدرسة لمادة الكيمياء، معقودة بشخص يسمّى منصور، كيف لو تعرف بأمره في يومٍ من الأيام، هل سترضى بما يقوم به؟ لن يخبرها، يريد أن يعرف عنها أكثر أولا ثم يقرر بعد ذلك:

- ما رأيك لو نلتقي في أحد المطاعم التي يمكننا فيها تناول وجبة الغداء والتحدث بكل هدوء.

- ولكن كيف ستكون نظرة الناس نحوي وأنا أمشي بجانبك؟

- لا تخافي! سيظننا الكثير أننا زوجين.

فكرت ثريَّا قليلا، ثم وافقت على العرض، نخرجا من المدرسة ليلتقيا حيث اتفقا.

- وصلا إلى المطعم فحجز جلال غرفة خاصة وطلبا غداءهما وكأنه زوجها.نظر نحوها وقال مازحا:

- أهلًا بزوجتي المؤقتة!

بادرته بنصف ضحكة، كأنها توافقه فيما قال ولا توافقه في الوقت نفسه ، ثم قالت:

- أولًا أنا معقودة يا جلال، وأرى أن لا تتعب نفسك بالركض خلفي .. كما لابد أن تعرف أنك تخالف بعملك هذا العادة والقانون.

- هناك أوقات لابد أن نخالف فيها العادات والقوانين، كأن نخالفها من أجل من نحب، أو من أجل إنقاذ أحدهم على حافة الموت.

- لكن حبك لم يصل إلى درجة معها تخالف هذه القوانين، وأنا لست على حافة الموت أيضا، فلماذا نخالف؟

- مخالفة القوانين عندما نصل إلى مرتبة عالية من الحب ليست مخالفة في الأصل، بل واجب، وأن تُنقذين أحدهم قبل أن

يصل إلى حافة الموت خيرٌ من أن تهلكين معه إن فشلتِ في الإنقاذ.

- ولكن أرى أن أبقى في ظلّ عقيدي خير من أن أغامر في حبٍ لا أعرف نهايته.

- لسنا مجبرين على معرفة النهايات، فالنهايات من مهام الأقدار.

- وهل تؤمن بالأقدار؟

- بالطبع أؤمن بالأقدار، عندما تكون نتائجها خارج نطاق تأثيرنا؟

- دعنا من كل هذا، وعرّفني الآن بنفسك؟

ضحك جلال وكأن جوابه لها كان معروفا:

- بكل بساطة، حارس مدرسة، ولديه الفضول للتعرف على فتاة مثلك،فيرتبط بها إذا رآها مناسبة، هذا كل ما في الأمر.

امتعضت ثريَّا لجوابه ، فعدَّلت من جلستها، وبدا على وجهها الجدية ممزوجة بلهفة للحب الذي افتقدته لسنين فقالت:

- أتمنى لو بإمكاني الترحيب بما تفكر فيه، لكنني لا أستطيع يا جلال، حتى وإن قلت "نعم" وتجاهلت كل التناقضات التي أعيشها، فمن يضمن لي أنك لن تكون مثل كل من سبقوك؟

- أنت امرأة غامضة، ماذا تقصدين بمن سبقوني؟

تنهدت ثريَّا، ثم أخذت نفسًا عميقا، وقالت:

- حياتي ليست كما أبدو، إنها مليئة بكل ما لا يمكنك تخيله.

- رغم أني رجلٌ لا يؤمن سوى بالحاضر ولا يكترث للماضي إلا أني أريد أن أسمع عن حياتك.

- ليكن في علمك يا جلال أني لن أستطيع أن أحبك، لأنه من العيب أن أحب شخصاً آخر وأنا معقودة.

- ليس بالعيب أن يحب المرء من شاء، العيب أن يخون.

- وحبي لك في ظل عقدي من منصور أليس عيبًا وخيانة؟

- النفس ليست مخيرة فيمن تحب، ثم ما يدريك أن منصور هو من خانك وتزوج، ولم يعد يهمه أنك ما تزلين تحبينه أم لا!

- لم أعد أعرف ماذا أعمل يا جلال، هل أظلّ مع عقيدي وإن سئم مني، أم أتبع قلبي وليكن ما يكن.

- "ظِئْر رءوم خيرٌ من أمّ سَئوم" يا ثريّا، والقلب وما يهوى.

فكَّرت قليلًا، ثم قالت بحزن:

- لو أخبرتك عن حياتي بكل مصداقية، أخاف أن تتغير نظرتك تجاهي.

- ولماذا تتغير نظرتي تجاهك؟

- أعرف أنك معجب بي، وربما تحبني أيضا، وأنا كامرأةٍ لكم بحثت عن الاستقرار منذ سنين . .أتلهف لأبادلك نفس المشاعر . . ولكن لا يمكنني ذلك

سكتت برهة من الزمن وكأنها تفكر، ثم قالت بتردد:

- ولكن . . .

بتلهف سأل جلال:

- ولكن ماذا؟

- ولكن باستطاعتي أن أحبك كصديقٍ عزيز يمكنني إخباره بكل شيء عن حياتي . . هل توافق؟

- أوافق طبعا.

- لقد دخلتُ جامعة صنعاء قبل ١٢ عاما، ياه لقد مرَّت سنوات من العمر يا جلال وكأنها لحظات، ولكن للأسف الشديد منذ دخولي الجامعة حتى اللحظة لم أجد سوى الاضطرابات النفسية والانكسارات الداخلية وصدمات في الحياة جعلتني أصبح هذه الفتاة التي هي أمامك الآن. . متخبطة المشاعر . .تنتظر مستقبلًا مجهولا. . لا تعرف من سينتشلها من حياتها الكئيبة.

بدأ الحارس جلال يحتار أكثر وفضوله ازداد أكثر:

- احكي لي كل ما حصل لك وسأكون لك آذانًا صاغية.

- لكن كما اشترطت عليك، أن لا تسيء الفهم؛ لأني لم أبحث سوى عن الاستقرار ، ولكن بعضاً ممن سأحكي لك عنهم استغلوا وضعي وطيبة قلبي ثم تركوني كما ترى.

كنتُ حينها أجمل مما تراني الآن بكثير، دخلت تخصص الكيمياء في جامعة صنعاء، كنت أسمع عن صديقاتي وعن علاقاتهن الغرامية مع شباب من الجامعة، ولم أفكر حينها بالدخول في علاقة حب رغم وجود الفضول بداخلي لخوض تلك التجربة. مع مرور الأيام إذ بي أسمع من صديقة لي أن أحد زملائي في الصف معجبٌ بي ولا يعرف كيف يعترف لي بذلك، ولكن في الوقت نفسه كان هناك أيضًا شاب آخر يحبني وكانا مختلفين تماما. الأول كان اسمه محمد ولن أخبرك عن الألقاب وأما الثاني فكان اسمه سليمان. انتابني حينها الفضول لتجربة الحب وكنت أميل إلى محمد أكثر، فقد كان صادق المشاعر، متواضع التصرف، أما سليمان فكان مغرورا، يحب الفخر ويكسوه الكبر ولذا يريدني أن أحبه حتى يتباهى بنفسه أمام أصدقائه بأن أجمل فتاة في القسم تحبه دون غيره.

قرر الاثنان أن يجمعا طلاب القسم، ويُلقي كلا منهما قصيدة يقولاها من أجلي، وصاحب القصيدة التي ستنال إعجابي يكون هو الفائز، والخاسر يتركني ولا يقترب مني أبدا.

اتفقا وكان سليمان حينها مندوب الطلاب،أي الواسطة بين الدكاترة وبيننا نحن الطلاب. طرح سليمان فكرة الندوة الشعرية، وكل من لدية شعر يلقيه فيكون نقاشًا أدبيا. رحَّب الطلاب بالفكرة وأتى اليوم التالي وحجز إحدى القاعات المتاحة حتى نجتمع فنقيم فيها الندوة. لن أطيل أكثر ولكن سليمان ألقى قصيدته والجميع يستمع بهدوء وأنا من بينهم. ما إن اعتلى محمد المنصة لإلقاء قصيدته إذ بإحدى طالبات الصف شدتني لتخبرني أن رئيس القسم يريدني في مكتبه الخاص. تركت القاعة وبي حيرة من هذا الاستدعاء المفاجئ. وصلت إلى رئيس القسم لاكتشف أنه لم يطلبني وأنها لم تكن سوى حركة مفتعلة وغبية في نفس الوقت من صديقة سليمان؛ حتى لا أسمع قصيدة زميلي ـمحمدـ مما أدى هذا التصرف إلى تمسكي بحبي له أكثر وتجاهلي للآخر.

لا أخفيك أني أحب محمد حتى اللحظة.

قاطعها جلال قائلا:

- وما الذي عمله حتى يجعلك تحبينه حتى اللحظة؟

- لم يعمل الكثير . . لكني كنت أشعر بحبه الصادق . . ببساطته ومدى قربه من قلبي، وهذا ما أريده وما تريده أي فتاة أخرى كما أظن.

قاطعها جلال مرةً أخرى:

- ولِمَ لم تخبريه بحبك فيتزوجكِ؟

- لا تستبق الأحداث! اعترف لي محمد بحبه واعترفت له بإعجابي به، أخبرني أنه يعيش في إحدى المناطق القريبة من صنعاء،وأنه من أجلي سيعمل المستحيل، فاتفقنا على أن يأتي ويطلب يدي من والدي، فنقيم حفلة الخطوبة، وبعد إتمامنا للجامعة نقيم العرس. أتى محمد إلينا مع عائلته، وأخبر والدي بأنه يطلب يدي منه ، فوافق والدي ، وطلب منه مليون ريال يمني كمهر لي. رجع محمد مع عائلته، ثم اتصل بي وأخبرني بأن المليون ريال يعتبر مبلغًا كبيرا بالنسبة له، فأشرتُ عليه أن يتصل بوالدي ويخبره بالأمر. اتصل بوالدي فلم يكسر بخاطره، وخفّض من قيمة المهر.أخيرًا اتفقنا أن الجمعة القادمة سيأتي محمد لمناسبة الخطوبة، وفي الوقت نفسه يدفع جزءا من المبلغ لوالدي كما هي العادة في مثل هذه المناسبة.

انتظرنا يوم الجمعة بفارغ الصبر، وجهزنا وليمة كبيرة، حتى أن والدي قام بدعوة جميع الأصدقاء والأقارب للحضور. جاء يوم الجمعة ولكن للأسف. . لم يأت محمد ، وكان أمراً بالغ الإحراج ؛ إذ قمنا بدعوة الأهل والأصدقاء، فحضروا جميعا ولم يحضر محمد ولا عائلته.

تألمتُ كثيرًا لتصرفه، وقررت إن لم يأتِ عائلتي بعذر يستحق ذاك التصرف فإني سأرفضه مهما كان الأمر. اتصلتُ بمحمد ولكن هاتفه كان مغلقا، سألت عنه عائلته فوصلني خبر من بعض أقربائه أنه توفي في ساحة ثورة ١١ فبراير[١]. تألمت لموته كثيرًا ودعوت الله أن يغفر له وأن يتغمده بواسع الرحمة والمغفرة .مات محمد ولكن حبي له لم يمت، فهو ما يزال على بالي حتى اللحظة.

مرّت بضعة أشهر من ذلك اليوم،تقدم لي خلالها بعض أصدقاء والدي،وكان من ضمن المتقدمين زميلي سليمان.

رغم أن كثيراً من العائلات تزوّج فتياتهم دون أخذ رأيهن إلا أن والدي لم يكن من هذا النوع، فقد كان يستشيرني

(١) ثورة في اليمن قامت ضد نظام علي عبد الله صالح في عام ٢٠١١

في أمر زواجي، وكنت أرفضهم؛ لعدم معرفتي بهم، فأنا الفتاة المتعلمة التي لابد أن تختار من تتزوج لا أن تقبل بأي رجُلٍ يطلبها للزواج، وأما سليمان رغم أن محمدا لم يعد موجودا إلا أني رفضته هو الآخر، لأنه رجل مغرور. أحسست بعد رفضي لطلبه أن الحقد بدأ يتغلغل في أعماقه، وشعرتُ أيضا أنه سيحاول الانتقام مني مهما كلفه الأمر، فهو حقودٌ لدود، كالجمل، لا ينسى من قهره.

ما كنت أفكّر يا جلال بأن السنين ستمر بي حتى توصلني إلى ما بعد الثلاثين وأصبح أنا هذه الفتاة المهيضة كسيرة الجناح، تنتظر مستقبلًا لا بارقة أمل فيه.

كانت علاقاتي مع الدكاترة قوية ، فأصبحتُ أنا مندوبة الطلاب، وحينها تعرفت عليَّ شاب خلوق يُدعى "إبراهيم"، يعمل في الجامعة نفسها ، أُعجب بي وأعجبتُ أنا بشخصيته أيضا.

بعد أن اعترف لي بحبه عرضت عليه أن يأتي ليطلب يدي من والدي ما دام يحبني، فوافق واتصل بالوالد وأخبره أنه يريد زيارتنا يوم الجمعة، فكما تعرف أن يوم الجمعة هو اليوم الذي تُقام فيه المناسبات. استعد والدي للأمر بعد أن حذرني أن لا يكون

في الأمر لعبة، فطمأنته بأن هذا الرجل مخلَّق، وليس من عوائده التصرف بطيش. أتت الجمعة وأتى إبراهيم بصحبة شاب بجانبه، أحضره حتى يكون هو الواسطة[١]. قالت أختي وبعض ممن حضرن من صديقاتي أن ذلك الشاب كان وسيما، حتى إن بعضهن كن يقلن لو أنه كان العريس لكان أفضل. ضحكتُ بسخرية لقولهن، ووصفتُ إبراهيم أمامهن غير مباليةً بما قلن. أتت الجمعة التي اتّفق فيها إبراهيم مع والدي على الخطوبة، فصلّى الناس الجمعة وانتهوا، وصلّوا العصر وانتهى اليوم، ولكن إبراهيم لم يأت بعد. ما هذا الحظ التعيس الذي يلاحقني! اتصل والدي بإبراهيم لكنه لم يرد عليه بنفسه، بل رد عليه والده وبلهجةٍ قاسية أخبر والدي أنهم لن يأتوا وأن إبراهيم تصرف دون استشارتهم وهم غير موافقين على هذا الزواج . ثار والدي في البداية على تصرف كهذا،ولكن ما إن رأى الضيوف من حوله وهم يملأون المنزل حتى حاول التظاهر بأن هناك أمراً طارئاً حصل مع عائلة إبراهيم تسبب في عدم مجيئهم.قام بهذا التصرف حتى لا يُحرَج أمام الضيوف، وسيعرف كيف يتصرف بعد ذلك.

(١)الشخص الذي يكون نقطة الوصل بين عائلة العريس وعائلة العروسة

اتصلتُ بإبراهيم في المساء ـدون علم عائلتيـ وقلبي منكسرٌ للمرة الثانية، فأخبرني أن والده يرفض فكرة الزواج هذه رفضًا باتا،ويتوعده بالطرد من البيت، وسيمنعه من الميراث فيما لو أنه أصرّ على أمر الزواج مني.

سؤالٌ خامر عقل جلال في أمر رفض والد إبراهيم، حيث قال:

- ولم لم يخبر عائلته بما سيقبل عليه قبل مجيئه إليكم؟

- قال أنه لم يكن يتوقع الرفض الحتمي من والده، وظن أن بمقدوره إقناعه.

قاطعها جلال مرةً أخرى مستنكرا:

- ولماذا يرفض والد إبراهيم زواجه منك؟

- لأنه يريده أن يتزوج من ابنة عمه، فسلالته ترفض تزويج من ليس منهم، فأرغموه على هذا الأمر، وتزوج من ابنة عمه، وتركني.

لا أعرف يا جلال هل أنا الحمقاء، لأني أصدق كل ما يُقال لي، أم أن ظروفهم الحقيقية هي من تجعلهم يتخلون عني. ها أنا ألاقي الصدمة الثانية وبقسوة، وللأسف بدأ تفاعل والدي يضعف في أمر الزواج.

مرَّت أسابيع حتى سمعت من صديقةٍ لي أخبرتني أن إبراهيم وبعد زواجه من ابنة عمه الذي لا يحبها نشبت خلافات عائلية كانت ضحيتها مقتل إبراهيم. حزنت لأمره ولكن ليس كما حزنت على محمد، فهو الحب الأول.

نظر جلال نحو ثريَّا بعين الشفقة واللوم في الوقت نفسه قائلا:

- تعيسةٌ من تعيش حياة مثلك يا ثريَّا، فحياة مثل حياتك لا تليق بك . . ماذا بعد؟

أخرجتْ ثريَّا تنهيدةً لكم حبستها في جوانحها، ثم أكملت:

- أتذكر ذلك الشاب الوسيم الذي رافق إبراهيم عندما جاء ليطلبني من والدي؟

- نعم أذكره.

- بعد فترة وجيزة، ولأن إبراهيم كان يصفني أمامه كثيرًا أُعجب بي، وتفاجأتُ أنا والعائلة بمجيئه طالبًا يدي من والدي.

سؤالٌ جاء على عجالة من جلال:

- وهل قبلتِ؟

- قبلت يا جلال . . لأني بدأت أخاف أن يمر الوقت ولا أجد من يطلبني للزواج.

- ولِمَ لم يكتمل الزواج إذن؟

- أتى إلى والدي طالبًا يدي للزواج، وكان والدي حينها يرى أيضًا أن العمر بدأ يتقدم بي، فوافق؛ خوفا أن لا يطرق بابنا من يتزوجني بعد هذا العمر . . ووافقت أنا أيضا . . واتفقنا على أن يأتي مع عائلته لنتعارف. أتت عائلته بينما ارتديتُ يومها فستانًا أبيضا. . ذا فتحة واسعة تُظهر محاسن صدري وجيدي الناصعين بالبياض . . أما شعري فقد كان أيضًا جذّابا . . فقد ساعدتني ابنة عمي في إعطائه تسريحة أنيقة. لقد لبستُ يومها أجمل ما لدي لإظهار محاسني أمام العائلة، واحتفالًا بالخطوبة التي لم نقم مراسيمها بعد. خرج الشاب الوسيم من غرفة الضيوف متجهًا نحو

دورة المياه ـالمنفصلة عن المنزلـ وكنت أراقبه حتى أراه، فأنا لا أعرفه جيدا. بينما كنت أحاول رؤيته لاحظني هو أيضا، فغمزني بعينه، وبدون وعيٍ مني غمزته أيضا، ولا أعرف كيف فعلت ذلك. أعترف بأني ارتكبت خطأً فادحًا، لكنني عملتها. أشار بيده وابتسم ابتسامةً ساحرة، فخرجتُ وكأن قوةً خارجية قادتني إليه، فسلمت عليه دون أن يراني أحد ـكما خُيل إليـ ولا أعرف أي تصرفٍ أحمق كهذا قد أقبلت عليه. أما هو فقد تصرف بعد ذلك بتصرف ليته ما قام به . .

شدّت الجملة الأخيرة الحارس جلال، فسأل مقاطعًا كلامها:

- وماذا عمل؟

حاولت ثريَّا أن تتكلم لكن صوتًا صادرًا من الصالة الخارجية للمطعم قاطعهما وهو يردد "علي له وعلي له وعلي ما شيء له . أيووووو".

ارتبك الحارس جلال للصوت، فحاول أن يخرج لكنه بقي واقفًا أمام السترة التي كانت تخدر تلك الغرفة الخاصة، فلم يسمع بعدها إلا بصوت أحد العمال وهو يجرّ صاحب ذلك

الصوت الذي أفزع جلال ويأمره بالخروج، موضحًا أن هذا مطعم محترم، نخرج الرجل المجنون بعد أن تصرف معه النادل على أنه متسول.

حاولت ثريَّا أن تكمل لكن جلال اعتذر منها موضحًا أنه لابد أن يخرج، فهناك أمر مهم جدًا لابد أن يقوم به. اندهشت ثريَّا لهذا التصرف وشكَّت أن صوت ذلك المجنون له علاقة بجلال أو أنه ذكّره بأمرٍ ما.

على عجالة دفع جلال الحساب، وودع ثريَّا،ثم خرج.

جلال يتلفت هنا وهناك علّه يجد صديقه ولكن دون أن تعرف ثريَّا بالأمر، فهذا الرجل هو الذي يبحث عنه منذ أسابيع ولم يره بعد، ولابد أن يعرف منه بعض الأمور.

سئم من البحث، فتجاهل الأمر سالكًا طريقه نحو سوق القات. اشترى جلال حزمة من القات، وأخذ بجانبه علبة ماء وعلبة من السجائر، وبدأ يمشي نحو غرفة الحراسة في المدرسة وهو يفكر في صديقه الذي يدعي الجنون سائلًا نفسه "كيف اختفى بهذه السرعة؟ لماذا دخل إلى المطعم؟ هل عرف

بتواجدي هنا ؟" لم يحالف الحظ جلال هذه المرة حتى يلتقي بصديقه المجنون، فمكث طوال نهاره يفكر في الأمر خائفًا على حياته "ماذا لو أن العدو عرف بأمره؟".

-٢-

عادت ثريَّا إلى المنزل ذلك اليوم لتكتشف أن أخاها لم يعد بعد. بعد عدة اتصالات أجرتها مع المكان الذي يعمل فيه اتضّح لها أن جماعة من الحوثيين أخذوه في دورة سرية لا يعرف كثيراً عن أسباب قيامهم بها. يُقال أنهم يقومون بهذه العملية بشكل دوري ، إذ يأخذون شخصيات محددة ، فيغطّون على أعينهم، ويذهبون بهم إلى أماكن غير معروفة؛ لإعطائهم دروسا خاصة. الكثير لا يعرف المغزى من تلك الدروس، فبعضهم يقول أنها تعبئة فكرية، وآخرون يقولون بأنها رسالة تهديد، وآخرون يقولون أنها للغرضين في آنٍ واحد. كانت ثريَّا تشعر بقلق زائد على أخيها، فليس لديها من يساندها غيره في تحمل أعباء العائلة.

أتى الليل فاتصلت ثريَّا بالحارس جلال لتتفقد أحواله وتخبره بأمر أخيها وتسأله كذلك عن الأمر الطارئ . . هل استطاع حله أم لا؟ . . رد عليها جلال متأسفًا لما حصل لأخيها، وطمأنها أنه سيكون بخير، ثم أخبرها أنه استطاع حل الأمر،

ولكن طلب منها أن لا تتصل به مرةً أخرى ولا تتحدث إليه إلا عندما يتصل بها هو، واتفقا على أن يلتقيا الثلاثاء القادم. أي في الثامن من أكتوبر. في إحدى محلات بيع الآيسكريم القريبة من المدرسة، ولكن هذه المرة مع أذان العصر، ليس مع الغداء؛ تمويهًا للأعين.

أتت ثريَّا اليوم التالي وفي عقلها حيرة وألف سؤال . . "لماذا لا يريدني أن أتصل به؟ . . لماذا اضطرب ذلك اليوم وخرج بسرعة؟ . . لماذا لا يريدني أن ألتقي به إلاّ بعد أسبوع؟" ولكنها أيضًا لا تستطيع أن تتحدث معه؛ لأنه منعها من ذلك حتى يبادرها بالحديث هو الأول.

خرج جلال ذلك اليوم كعادته لشراء القات وبعض الأشياء، ويا للصدفة! لقد التقى بصديقه المجنون، أو على الأصح من يدّعي الجنون. نظر إليه جلال وكأنه يريد التحدث إليه في أمر مهم. ذهب هذه المرة جلال الأول فدخل في إحدى أزقة المنازل ولحق به صديقه، وما إن وصل حتى قال:

- ألم أخبرك أن أدنى خطأ ربما يوديك في ستين داهية يا غبي؟

بتلهف سأل جلال:

- هل كنت ذلك الرجل الذي دخل المطعم وهو يردد "علي له وعلي له وعلي ما شيء له . . .؟"

زمجر صديقه قائلا:

- نعم . . ومن تلك الفتاة التي كانت بجانبك؟

- ليست سوى معلّمة في المدرسة التي أعمل فيها و . . وطلبت مني الاستشارة فحسب.

- أيُّ أحمقٍ أنت؟ العمل الذي تقوم به يا صديقي يجب أن لا تخالطه العواطف . . هل فهمت؟

هز رأسه بأنه فهم ما قال، ثم سأله مجددا:

- ولكن من أنت؟

- لا عليك من أكون، ولكن للمعرفة فقط اسمي خالد وقد التقيتك في عدن عندما قمنا بدورة تدريبية . . أكرر للمرة الأخيرة . . ما نقوم به من عمل لا يتقبل العواطف يا صديقي.

مرّت الأيام سريعا، وها هو الثلاثاء أتى وحان موعد لقاء ثريَّا، فهي تريد معرفة أجوبة لتلك الأسئلة، والحارس جلال يريد أيضا أن يعرف ما هو التصرف التي تمنت ثريَّا لو أنها لم تعمله مع ذلك الشاب الوسيم.

طلع صباح ثلاثاء الثامن من أكتوبر/تشرين الأول بكل هدوء وكأنه يرتب لعملية خطرة. دخلت ثريَّا بوابة المدرسة بعد أن ألقت التحية على الحارس جلال وعلى وجهها ابتسامة عريضة تقول في معناها "اليوم يومنا". تمر الدقائق سريعا، وبحذر اجتمعا في المكان الذي اتفقا عليه .

ألقت التحية وجلسا بعد أن طلب كأسين من الآيسكريم ، فاليوم قرر مضغ القات في الليل.

نضرت ثريَّا نحو جلال وبَادَرَتْه متسائلة:

- لماذا تصرفت المرة السابقة كذلك؟ هل من مشكلة؟

لم يثق بعد في ثريَّا ، فرد عليها:

- لم يكن هناك شيء مهمٌ يا ثريَّا ، ولكن اليوم لابد أن أرجع إلى المدرسة في أقرب وقت ممكن، وأريد أن أعرف منك ما تبقى من القصة.

امتعضت ثريَّا للأمر ثم قالت:

- الجميع يأخذون مني ما يريدون ثم يذهبون . . وأنت أيضا . . تريد أن تأخذ ما يهمك أو ما تريد معرفته،ثم تذهب . . ما أقساكم أيها الرجال!

زمجر قليلًا ثم رد قائلا:

- ليتكِ تفهمين يا ثريَّا، المسألة ليست مسألة أخذ ما أريد ثم أذهب . . لن أتركك أبدا، وكل ما يهمني هو مساعدتك لا أكثر . . وصلنا في المرة السابقة أن الشاب الوسيم قام بتصرف تمنيتِ لو أنه لم يقم به . . ما هو؟

أخرجت تنهيدةً عميقة ثم أكملت:

- أخبرتك أن دورة المياه كانت منعزلة عن المنزل قليلا، فخرج لقضاء حاجة، وكما أخبرتك أيضا أني كنت متزينة، وأراقبه لعلّني أراه، مثلي مثل أي فتاة تقدم لها رجل للزواج وتريد أن

تعرفه.المهم أنه بعد أن غمز بعينه ألقيت التحية ورحبت به، فلم أشعر بنفسي إلا وقد اختطفني من مكاني ورما بي بين أحضانه، وبدأ يقبلني بشهوة، بينما كنت واقفةً متسمرة في مكاني لا أعرف ماذا أعمل. كان يحاول أن يستمر لولا أني دفعته حتى كاد أن يقع، وفررت إلى الغرفة التي كانت بها الضيوف من النساء. كنت مرتبكة حتى شعر بذلك البقية. لم يمض بعد ذلك سوى نصف ساعة تقريبا،ورأيت الشاب الوسيم يخرج وهو ينادي العائلة للرواح. تفاجأت لما حصل، وبعد أن ذهب الجميع دخلت كي أسأل عما حدث، إذ بي أتفاجأ بأبي يصفعني بقوة على خدي. لأول مرة يصفعني والدي، ولأول مرة أرى عروق رقبته وكأنهن سينفجرن من كثرة غضبه وهو يقول:

- هل ربيتك هكذا يا ثريَّا ؟. . دون أي حياء أو خجل؟ الله المستعان والتربية ربّيتك.

كان أبي ثائرًا كالأسد، حاولت أن أخبره بأني غلطت هذه المرة وليسامحني، فلم أر إلا وأنفاسه تتسارع، أحضرنا سيارة إسعاف وذهبنا به إلى المستشفى، ولم يخرج إلا بعد أن أخذتُ التقارير الطبية التي تقول أن أبي مصابٌ بمرض السكر والضغط

أيضا، وأن أدنى ضغوطات نفسية قد تتسبب في جلطة أو سكتة قلبية. من بعد تلك المرة قرر والدي أن ننقل منزلنا من ذلك الحي،فسمعة عائلتي ساءت بعد أن وصلتهم تلك الأخبار ولا أعرف كيف وصلتهم بكل تلك السرعة.

قرر كذلك أن يقبل أي شخص يتقدم لي دون استشارتي، على أن يكون العقد مع الخطبة بيوم واحد مباشرة.

تألمت كثيرًا لما حصل لعائلتي وشعرت بالخذلان، تمنيت حينها لو أني خُلقت رجلًا لكان أفضل لي، بل تمنيت أن لم أخلق، فبدأت أدخل في حالة نفسية انتهت بي إلى مرض لم أر أحدا مرض بمثله في حياتي.

نظر جلال بانتباه سائلا:

- أي مرضٍ هذا؟

أرادت ثريَّا أن تجيب على سؤاله ولكن سمع الحارس جلال مع ثريَّا نفس الرجل وهو يردد " علي له وعلي له وعلي ما شيء له . .أيووووو".

اضطربت تصرفات الحارس جلال رغم أن أمر اجتماعهم لم يعرف به أحد ، حاول جلال أن يخرج ليرى صديقه، ويسأله بعض ما يدور في عقله، ولكن فاجأ الجميع وقتها انفجارٌ ضخم هز المنطقة، الجميع من هول الانفجار يحاول الاختباء في أي مكان يمكن أن يحميهم من الموت، أما بعض النساء والأطفال فقد استغرقوا في البكاء. بعد الانفجار بدقائق نظرت ثريَّا نحو السماء، يا للهول! دخان الانفجار غطى سماء المدينة حتى اختلط بالسحاب، وامتزجت الدماء بالماء وأمطرت السماء مطراً يحمل بين قطراته اللعنات، ويلخِّص في معانيه بكاء الأرامل وصراخ الأطفال. نظر الحارس جلال نحو ثريَّا قائلا:

- انتبهي على نفسك يا ثريَّا. لابد أن أعود إلى المدرسة حالا!

لوح بيده نحوها وكأنه يودعها، ثم فرّ مسرعًا يتخطى الأزقة نحو المدرسة.

كانت ثريَّا حينها مرعوبة وخائفة، وتصرف جلال بتلك الطريقة زاد من جزعها، فيداها ترتعشا ووجهها مصفر من هول ما يحدث.هي الأخرى تركت كل شيء واتجهت نحو المنزل.ما إن رأت منزلهم من الخارج حتى شعرت ببعض الأمان.بخطوات

متعبة صعدت السلالم التي توصلها إلى المنزل وهي تحمد الله أنه لم يصبها شيء. ما إن اقتربت من باب المنزل حتى سمعت أصوات لها جلبة، أسرعت الخطى لتتفاجأ بالعويل يملأ المكان وأصوات النساء المنتحب يلحن أغنية الموت المفزع.

- يا إلهي . .! ما الذي حصل؟

حركاتها المرتبكة تتساءل عما حدث. نظرت نحو غرفة الجلوس لترى جنازة مغطاة بكفن أبيض.

نظرت نحو أختها شيماء وكأنها تستفسرها من صاحب الجنازة. ظنّت في البداية أنه أباها، لكن ما صعقها هو جواب شيماء حين قالت:

- قُتِل ـأمينـ أخي يا ثريَّا.

لم تتمالك ثريَّا نفسها فجثت على ركبتيها تبكي،وفجأة، تذكّرت أباها فتوجهت مباشرة نحو غرفته تتفقده لتجده مغمى عليه.يا لكل هذه اللعنات! لم تعد تبكي أخاها بل وأباها أيضا!

ها هي خيبة جديدة وها هو بابٌ مفتوح لعنف لن ينتهي. إنها الآن ـفي لحظةـ أصبحت هي من تهتم بالأسرة كلها؛ فالذي كان يهتم بالجميع قد التقطه الموت في لحظة غادرة.

يا للمصيبة عندما تشعر، فجأة، أنك كل شيء بالنسبة لأشخاص آخرين، تشعر حينها وكأن جبال الدنيا كلها فوق ظهرك. حاولت ثريَّا أن تتصرف بعقلانية وما أصعب أن يتصرف المرء بعقلانية في موقفٍ كهذا!

استأجرت سيارة إسعاف وذهبت بوالدها مسرعةً نحو المستشفى.بقيت تنتظر حتى أتى دور والدها. أخيرًا جاء دور والدها بعد أن كاد يموت في صالة الانتظار.بقيت تنتظر خبر الدكتور حتى تقرر، هل ستبكي أخاها أم أخاها وأباها معا. خرج الأب أخيرا، ولكن مع خبر أن جلطةً أصابته، وها هو الدكتور يحذر ثريَّا من عواقب الجلطة الثانية. أخذت ثريَّا أباها واتجهت نحو المنزل تبكي أخاها وتتوجع لما حصل لأبيها.ثريَّا ما زالت تبكي وهي تردد:

- لماذا الحياة قاسية إلى هذا الحد يا ترى؟! لماذا يموت أناس ويحيى آخرون؟ لماذا تقسو الحياة عليّ إلى هذه الدرجة حتى أجد العذاب بي وبعائلتي؟

سمعتها -زوجة إمام جامع الحي- حسينة وهي تعزيهم وتواسيهم فقالت:

- يا بنيتي كلنا ميتون ، والدنيا حق الله، وليكن إيمانك بالله قوي.

لا جواب من ثريَّا، فقط تبكي بألم وحرقة. أمسكت حسينة بيد ثريَّا تواسيها:

- هذا هو أجله يا بنيتي ، لا تعترضي على أمر الله .

ردت ودمها يفور من الحرقة:

- ليس أجله يا عمة حسينة . .هم من عجّلوا بأجله، الأجل الحقيقي لو أنه مات على فراش، أما أن يرسلوه إلى الموت ثم تأتون أنتم لتخبرونا أنه أجله، فهذا كذب وافتراء.

- استغفري الله يا بنيتي. . ليكن إيمانك بالله قوي، ثم إن الله كاتب علينا كل شيء من قبل أن نُخلق، وهذه إرادة الله.

كانت تتحدث دون خوف من أي شيء، لم تعد تخاف من الموت بل أصبحت تتمناه، ولم تعد تخاف على أخيها الذي يهتم بهم فقد مات، لذا ردت بحرقة:

- إذا كان الله رحيما، فلماذا يعذبني هكذا يا عمة حسينة؟

- استغفري الله يا بنيتي . .هل تعترضين على أمر الله؟

- أنا لا اعترض على أمر الله، لكن أعترض على ما تقولونه أنتم، اعترض على من يقتلونا وينهبون أموالنا ويعذبوننا ثم يقولون أن هذه إرادة الله وحكمته، الله لا يريد لعباده الشر.

قامت العمة حسينة وهي تتمتم بالاستغفار وكأنها ارتكبت ذنبًا بسماعها لما قالته ثريَّا. اقتربت حسينة من صديقتها _فاطمة_ وبين هرج وبكاء الحاضرين همست في أذنها :

- ثريَّا جُنَّت يا فاطمة . . الله يعين أبوها عليها.

ردت عليها وكأنها توافقها:

- هي في الأصل بها مرض نفسي من زمنٍ ماض. . الله يعين أبوها وإخوتها عليها.

بكت العائلة ابنهم الذي كان من يعولهم ويهتم لأمرهم. . بكت نفسها لأنه لن يعود ذلك الشخص الذي كان ظهراً يسندها إذ تكالبت عليها أرزاء الحياة، وكان الأمان بين فواجع هذا الزمان. رغم أنها كانت تعمل هي أيضا إلا أنها لم تكن تشعر بالمسؤولية التي على عاتقها اللحظة، لقد كان يدفع من راتبه إيجار المنزل، وأجرة صهريج الماء، وأدوية الوالد، كانت ترى فيه المخلص والمنقذ إذا ألمت بها مصيبة، أما الآن فقد ذهب وتركها تتجرع كل شيء لوحدها.

مع غروب شمس ذلك اليوم شعرت ثريّا أنها وحيدة لدرجة لا يمكن لأحدٍ تخيلها. طَوي الليل ومضى منه فراسخ ولم تنم ثريَّا بعد ، ليس بكاءً على أخيها وأبيها فقط، بل ترثي نفسها، فهي الآن المسؤولة الأولى والأخيرة عن هذه العائلة المسكينة. لابد أن تعمل ليل نهار حتى توفر لهم ما يسدون به رمق بطونهم، وحتى يدفعون أجرة ذلك المنزل الذي ستأوي إليه أبدانهم الهزيلة والمنهكة من نكبات الحياة. إنها لا تبكي موت أخيها فقط، إنها تبكي أياماً لابد أن تكون هي الرجل في المنزل وهي امرأة، وتكون القوية وهي ضعيفة، وتكون الأم والأخ والابن وهي في الحقيقة ليست سوى أخت.

-٣-

مضت أيام وبدأ الحي يتكلم عن ثريَّا ـالمجنونةـ التي دل على ذلك كفرها بالله ـعلى حد قولهمـ فزارها الشيخ أحمد، إمام جامع الحي بعد أن سمع الخبر من زوجته. عزَّى العائلة ثم بدأ يتكلم إلى ثريَّا:

- بنيتي ثريَّا! الله سبحانه وتعالى يقول "ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب" لماذا تقنطين من رحمة الله وتقولين على الله ما ليس فيه؟ فالله قد قدَّر لأخيكِ أن يموت بهذه الطريقة.

نظرت إليه ببرود ثم ردّت:

- أولًا لا تتلاعب بالمفردات، فهو لم يمت، لكنه قُتِل، ثانيًا لم أقل على الله ما ليس فيه، أنتم الذين تقولون على الله ما ليس فيه، أنا مؤمنة بأن الله رحيم وأنه لم يقتل أخي، أما أنتم فتريدون تلبيس الله كل التهم ثم تريدون منا أن نؤمن بأنه رحيم.

- كيف هذا يا ثريَّا؟ . .هل تؤمنين بقضاء الله وقدره.

- طبعًا أؤمن . .ولكن ليس القدر الذي تؤمنون به. . أؤمن أن الله خلق الأرض ووضع قوانينه فيها، فمن قتل فهو قاتل وليس لله دخل في جريمته، ومن أخطأ فهو مخطئ وليس لله دخل في خطئه. . لماذا تقولون أن الله أراد لنا هذا؟ . .الله لا يريد لعباده الشر.

بدأ الشيخ أحمد يتوتر وبدأت نبرات صوته تزداد حدة:

- يا بنيتي! بما أن الله أراد أن يموت بتلك الطريقة، فهو لخيرٍ أراده الله لكم.

علا صوتها، فردَّت:

- الله ليس مجرمًا يا شيخ أحمد حتى يقتل عائلتي، ويتركني أتجرع الألم لوحدي ، الله بريءٌ مما تدّعون.

- استغفري الله يا بنيتي قبل أن تعلم الدولة بما تقولينه وإلا سجنوك. لم يعد لأبيكِ سواك، فلا تتسببي بكلامك هذا في هلاككم جميعا.

- هكذا هم حكامنا للأسف . .يسلبوننا أموالنا،ثم يقولون أن الله يحب الفقراء لذا كتب علينا الفقر، بعد ذلك يرسلوننا إلى الموت،

ثم وبكل بجاحة يرسلونكم أنتم لتخبرونا أن الله شرَّفنا أن قُتِلنا من أجلهم وفي سبيلهم.أي إلهٍ تريدوننا أن نؤمن به؟

أتريدني أن أؤمن بالإله الذي يحميهم ويقتلنا، والذي يغنيهم ويفقرنا، والذي يرفعهم ويضعنا ؟ . . إذا كان هذا هو إلههم فأنا كافرٌ بهذا الإله، الله ورسوله الذي أؤمن بهما براءٌ مما يعملون.

ظلّا يتجادلان لدقائق، وبعد أن رأى الشيخ أحمد أن لا فائدة من الحديث معها خرج غاضبًا من المنزل وهو يتمتم بالاستغفار.

-٤-

ذهبت ثريَّا اليوم التالي إلى المدرسة ،وفجأة، أتت الشرطة فأخذتها من المدرسة دون أي سببٍ يُذكر. كانت تتساءل عن السبب ؟ لكن لا جواب. مكثت ثريَّا في السجن قرابة الشهر، ثم خرجت أخيرًا بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى مدير السجن ليخبروه أنها كانت تعيش حالة نفسية بعد موت أخيها، فأخرجها على أن لا ترجع لما قالته مرةً أخرى.

فرحت العائلة برجوع ثريَّا، ثم ما لبثت أن عادت للعمل في المدرسة من جديد.

كانت تمشي ذلك اليوم بين رواق المدرسة متضعضعة الحال، خائرة النفس، لم تعد تلك التي تتزين بأجمل ما لديها ولا تلك التي تشع عيناها بالنشاط والنور، إن الأيام التي قضتها في السجن جعلتها تبدو وكأنها مكثت من العمر سنين. الإرهاق باديًا على جسمها، عيناها ضامرتان كنبتة لم تُسق منذ زمن، تكاد أن تموت في أي لحظة، كثرة الهموم وغزارة الدموع إلى جانب العمل دون توقف أنهك جسمها الذي كانت تفتخر بأنه رأس مالها فأصبح نحيلا، تمشي خارجةً نحو الساحة وكأن جسمها ليس منها، فشرود ذهنها وتفكيرها في العائلة التي أصبحت هي من تعولهم جعلها في شرودٍ دائم. اقترب منها الحارس جلال منذهلًا لحالتها:

- ثريَّا!

التفتت وكأنها لم تكن تعرف بوجوده، فأجابت:

- هه . .اا. . جلال!. . تفضل.

إنه لشيءٌ ترأف له الحجارة فكيف بقلوب البشر، نظر إليها ثم قال:

- أراكِ لستِ بخير.. ما الذي جرى لكِ حتى صرتِ هكذا؟

تنهدت بألم ،وأخرجت زفرةً من جوفها بينما ساحت من عينيها دموع مسحتها بيدها وهي تقول:

- وهل عشنا يومًا بخير حتى نسلم المشاكل يا جلال؟

هاله الأمر، فهو لم يعرف بعد عن خبر مقتل أخيها،ولا يعرف السبب الحقيقي لدخولها السجن أيضا، فهاتفها كان مغلقا. انفرد بها وسألها مرةً أخرى:

- بالله عليكِ.. ما سبب دخولك السجن حتى حصل لكِ كل ما حصل؟

هزَّت رأسها وكأنها تستغرب ثم قالت:

- أخي ـأمينـ الذي يعولنا كلنا..

- ما به؟

- ..قُتِل

- ماذا ..قُتِل؟

تنهيدةً أخرى أخرجتها من الأعماق ثم أكدت ما قالته بحزن:

- نعم ..قُتِل.

عرف في تلك اللحظة أنها تعيش أسوأ حالاتها،ولابد أن يقف بجانبها. أظهر مدى حزنه بالخبر، واساها واتفقا أن يلتقيا في محل الآيسكريم الذي التقيا فيه في المرة السابقة؛ ليعرف عن الخبر أكثر، فالحديث في المدرسة غير مناسب.

بعد أن أنهت عملها في المدرسة خرجت ثريَّا نحو المكان المُتفق عليه، وبعد وصولها ببضع دقائق جاء الحارس جلال. رفعت بصرها نحوه بنظرات باردة، ومقلتين مرهقتين. وجهًا لوجه كان جلوسهما، وابتدر جلال الحديث هذه المرة:

- ثريَّا! أولًا عظم الله أجرك. لقد كنتِ صادقة معي في كل شيء، وأخاف أن أُقتل قبل أن أخبرك بما أخفيه عنك.

- وماذا تريد أن تخبرني؟

- ما أريد أن أخبرك به هو أني . . أنا . . .

بصوتٍ عالٍ قالت ثريَّا:

- أنت ماذا يا جلال؟ لا تحاول اختلاق الجُمل لمواساتي. .انتهى كل شيء .

بحزم رد جلال:

- أنا لست في المدرسة من أجل الحراسة يا ثريَّا ، أنا أعمل كمُخْبِر، لكن احذري كل الحذر أن يعرف أحد بالأمر وإلا قتلوني وربما قتلوكِ أيضا.

بصوتٍ بائس مستسلم:

- ليتهم يقتلوني فيخلّصوني من هذه الحياة التعيسة التي أعيشها.

- أوصل بك الحد إلى أن تتمنين الموت؟

- لم يعد لدي حلمٌ أعيش من أجله في هذه الحياة، فما الحياة بلا أحلام!

- هذا ما يسعون من أجله يا ثريَّا. . أن نستسلم.

ارتفع صوت نشيج بكائها:

- اللعنة عليهم جميعا. .ولكن ما ذنب أخي حتى يموت. . وما ذنبنا نحن حتى نتعذب من بعده؟ واقهراه يا أخي أمين ! لو تطّلع على حالي وحال عائلتي من بعدك! أين أنت يا الله حتى تنتقم لي منهم؟. .لن يرتاح لي بال قبل أن أرى كل من شارك في قتل أخي مقتولًا أمامي.

لأن صوت بكاءها كان مرتفعًا فخاف أن يشعر البقية بأمرهم، اقترب إلى جانبها وحاول أن يمسك بيدها:

- استهدي بالله وليكن إيمانك كبيرا!لا تحزني أبدا.

هدأت ثريَّا قليلًا بينما أردف جلال:

- ولكن كيف قُتل؟

مسحت دموع عينيها المنهمرة بكفها ثم قالت:

- قبل أيام أخبرتك أن جماعة من الحوثيين أخذوه ولا نعرف في الحقيقة إلى أين أُخِذ، عاد بالأمس ولكنه عاد جثةً هامدة.يقولون أنهم أرسلوه إلى إحدى الجبهات، فقُتِل هناك.

- لا حول ولا قوة إلا بالله . .لم تخبريني عن السبب في سجنك، وما الذي عملوا بك في السجن حتى صرتِ هكذا؟

دمعةٌ ساحت من عينيها تغلي من الألم، قالت بعدها:

- سجنوني لأني قلتُ أن الله لم يقتل أخي، وهم مصرّون أن الله هو من قتله. لقد ذقت أسوأ أنواع التعذيب يا جلال. . اعترفت بأشياء لم أعملها . . ما كنت أتوقع أني سأعيش مرةً أخرى. زارني والدي حاملًا مرضه، فخرجت لأجدهم يعاملونه بطريقة لا يمكنك تصورها. اقترب والدي من أحدهم وهو يترجاه أن يراني فطرده مع من جاء ، كما يطردون الكلاب. شتموه وقالوا عنه أنه قوّاد وإلا لما تركني أتصرف كما أشاء، ثم اتهموني أني باغية. لم يستطع زيارتي طوال الشهر الذي قضيته في السجن سوى مرةً واحدة، بعد أن أعطاهم ما طلبوه من المال حتى يحققوا له ذلك. لقد كان يرتجف عندما رأيته وهو يحاول أن يحبس الدمع في عينيه. أمسك بي وبدأ يتحسس عروق يدي النحيلة، ووجهي المصفر، ثم سألني "هل اعتدوا عليكِ؟" أخبرته أنهم لم يعتدوا علي جنسيا، لكنهم من أجل أن لا أعود لما قلته استخدموا كل وسائل التعذيب.

جلال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

صوتٌ يجلجل في الخارج: "أيووووو. علي له وعلي له وعلي ما شيء له. .أيووووو". أخرج جلال نفسًا طويلًا وكأنه قد تعب من مراقبة خالد له بحركات سريعة قام من مكانه وهو يلعن هذه الجملة التي لا يعرف ماذا يقصد بها. دسَّ يده في جيبه وأخرج رزمة من المال ، وقدمها نحو ثريَّا قائلا:

- خذي هذه . . سيِّري بها أمور العائلة، وانتبهي على صحتكِ جيدًا حتى ألتقيك في المرة القادمة. انتبهي لنفسك يا ثريَّا واعتبريني أخاك الثاني.

في البداية رفضت أخذ النقود ولكن مع إصرارٍ منه أخذتها متوجهةً نحو المنزل.

خرج جلال ليبحث عن صديقه ـخالدـ الذي لا يسكت عن ترديده لتلك الجملة أمام الآخرين، والتي لا يعرف حتى ماذا يقصد بها، وبعد ساعة من جوبه الطرقات وجده على حين غفلة

، فانفرد به في مكان لا يراهما فيه الآخرون وبدأ خالد بالكلام قائلا:

- للأسف يا صديقي. لقد وصلت عنك أطراف أخبار إلى مركز قيادة العدو بما تعمله . . يقولون أنك توصل الأخبار عبر الفتاة التي تجتمع بها. أنت في خطر شديد ولابد أن تتصرف.

جأش قلب جلال فزعًا، وبحركة فجائية يشوبها الخوف جاء سؤاله:

- والحل؟

- لقد أوصلتُ الأمر إلى القائد، فأخبرني أنك لابد أن تتزوج الفتاة في اقرب وقت ممكن إن لم تكن متزوجة، ثم تنشر خبر زواجكما في المنطقة كلها؛ حتى تصل الأخبار للعدو فيظنون أن لقاءك بالفتاة لأغراضٍ عاطفية لا أكثر، وإن لم تستطع فلابد أن تترك عملك في المدرسة فورا، وتختفي في أقرب وقت ممكن . . ها أنا أخبرك، وقد أعذر من أنذر.

زادت حدة دقات قلب جلال واصفر وجهه بعد سماعه هذا الخبر، لأن هذا معناه أن شبح الموت سيكون بانتظاره في

نهاية كل طريق ومع فتحة كل باب وحتى في بريق عيون الناظرين؟ لن يهدأ باله ولن يهنأ بنومه، فشبح الموت سيأتيه حتى في أحلامه.

نعم . .الحارس الذي كان يذهب لشراء القات، ويدندن بالأغاني آمنًا أصبح خائفًا يترقّب الموت المحتوم في أي وقت. تذكَّر أن ثريَّا في حالة صعبة جدا، فلم يرض ضميره وحبه لها بأن يتركها وحيدة. اتصل بها في الليلة نفسها حيث اتفق معها على أن تأتي في الصباح مبكرةً قبل الجميع، حتى يخبرها بأمر مهم للغاية، فهو سيسافر ويترك المدينة كلها

-٥-

جاءت ثريَّا قبل الجميع كما اتفقا، وصلت إلى المدرسة لتجده بانتظارها على أحر من الجمر. رحبا ببعضهما على عجالة ثم ابتدر جلال الحديث:

- إني أقدِّم أكبر تضحية ربما مررت بها في حياتي، ومن الممكن أن تكون حياتي هي الثمن يا ثريَّا.

بدون اكتراث هزّت ثريَّا رأسها مشيرة بالموافقة، بينما جلال استرسل في الحديث:

- البلاد تمر بحالة استثنائية جدا، ونحن هنا ـالثوار الأحرارـ نعمل ليل نهار من أجل استعادة البلاد.تنظيمنا إلى حد اللحظة لا يُعرف عنه أحد، وتواصلنا سريّ للغاية. . فاحذري من أي تسريب.

لم تصدقه ثريَّا ، فكل الأطراف تقول أنها من أجل البلد، فعلقت على ما قال:

- أنت فقط من تضحي بروحك أيها المسكين، ولو متّ اليوم وبعثت بعد زمن لوجدت من كنت تراهم ملائكة يحاولون إنقاذ الوطن هم أنفسهم الذين باعوه وجلبوا له ولأبنائه التعاسة.

- ليس كلهم يا ثريَّا ، فما يزال في البلاد من فيهم الخير.

- لا يوجد أحد مضطلعٌ بمسؤوليته في هذه البلاد يا جلال، إنهم جميعًا يسعون وراء السلطة والجلوس على كراسي الحكم لا أكثر، أما الخير الذي تتحدث عنه فلن تجده سوى في ذلك المواطن المسكين الذي أصبح مصيره بيدِ غيره. . هل هذا هو الخبر الخطير؟

أحسّ جلال أنها لا تكترث لما يقوله، لذا اكتفى أن اقترب منها وهمس قائلا:

- أمرُ صنعاء ليس في صنعاء، وحياة من عليها ليس بأيديهم، إنَّ الحياة توهب عندما يرضى الخصوم.

لم تفهم ما قاله، ولم يرق لها الغوص في مثل هذه الأمور السياسية أكثر، فهي تقول أن السياسة مضمارٌ خاسر، خصوصًا بعد أن ذاقت المرّ في السجن، لذا قالت:

- أستحلفك بالله يا جلال أن لا تكثر من همومي بحديثك هذا، لا يهمني كل ما تقوله، فكل همي هو أن أجد لقمة العيش وأجرة المنزل الذي أسكن فيه مع عائلتي البسيطة، وليفعلوا ما فعلوا.

بحزن كان رد الحارس جلال:

- هذا هو ما يريدونه يا ثريَّا . . لقد نجحوا.

- قلت لك يا جلال للمرة الألف، لا يهمني كل ما تقول، وليذهب الجميع إلى الجحيم فلم أعد أهتم بأي شيء، ولكن أخبرني لماذا يرمي بكم قائدكم إلى التهلكة بمهمتك هذه؟

- حتى ينقذ البلاد. .

ضحكت بسخرية:

- تبًا لكل من يقول أنه يريد إنقاذ البلاد فيصور للآخرين نفسه على أنه المسيح المخلص!

رأى الحارس جلال أن لا فائدة من الحديث معها في أموره السياسية، ربما لأن ما تعرضت له في السجن من تعذيب جعلها تحرّم الحديث عنها. ها هي قهوته اليمنية المفضلة التي وضعها

على "دافور الغاز"[1] قد جهزت، فصبَّ فنجانين منها، وناولها أحدهما بلطف قائلا:

- اشربي هذا الفنجان من القهوة، فمعه سيتعدّل مزاجك، بعدها نكمل حديثنا عن المرض الذي أصابك بعد فعلتك مع الشاب الوسيم.

احتست ثريّا قهوتها، ثم قالت بحزن:

- لقد أُصُبت حينها بمرضٍ نفسي غريب الأطوار، كنت أشعر بطاقة هائلة جدًا لعمل الكثير من الأعمال، كان هناك إحساس يقول لي أن الجميع يكرهني، ويدبرون لي مكيدة. لم أذق طعم الحياة لشهور. قال بعضهم إنه سحر،فزرت الشيوخ ليقرؤوا علي القرآن ولم يُجدِ نفعا، ذهبت إلى المشعوذين ربما كان سحرًا كما يقول بعضهم ولم ينفع أيضا، وأخيرًا زرت الأطباء المختصين فاجتزت هذا المرض وشُفيت ولكن بعد أن تركت الجميع وتُرّهاتهم.

(١)موقد سفري للنار

- الحمد لله على سلامتك. . ولكن ما يثير فضولي هو كيف حصل العقد مع . . .

- تقصد مع منصور الزفت. آهٍ اه ! مع دخوله حياتي رأيت العجب، وكان سببًا للكثير من المصائب في حياتي. كان لدي صديق في الجامعة وكان قريبًا مني، عرف بعد أن شُفيت من الحالة النفسية فزارني وتحدثنا كثيرا، عرف من خلالها أن الحالة النفسية التي طرأت علي لم تكن سوى نتيجة للصدمات المتتابعة، وسوء الحالة الاقتصادية إضافةً إلى الفراغ العاطفي الذي كنت أعيشه وقتها، فأخبر منصور عني ووصفني أمامه ببذخ حتى قرر أن يأتي ليتعرف على العائلة. أعجب بي ـعلى حد قولهـ ومن ثم تقدم لي. قَبِلَ والدي بالزواج دون أن يستشيرني، وقرر والدي هذه المرة أن تكون الخطوبة والعقد في الوقت نفسه وفي أقل من ثلاثة أشهر، تفاديًا للأخطاء السابقة. حصلت المعجزة الكبرى أخيرًا أن تمت الخطوبة والعقد، ففرحت العائلة وفرحت أنا أيضًا رغم أني لا أعرفه.

لم أصدق نفسي أن الأمور أخيرًا اكتملت وتمت الخطوبة دون أي منغصات، وكذلك تم العقد على أن حفلة الزواج ستتم

بعد أسبوعين من العقد؛ حتى يرتب منصور أموره في الغربة، فيأخذ إجازة قصيرة يخرج خلالها إلى اليمن. حجز أخي صالة الأفراح وقمنا بتوزيع دعوات الفرح على جميع الأهل والأصدقاء، وحتى قطعت موعد مع إحدى الكوافيرات لعمل تسريحة الشعر، وقبل الحفلة بثلاثة أيام يأتينا الخبر الصادم من منصور أنه لن يستطيع الخروج؛ لعدم سماح كفيله بخروجه، ولا أدري إن كان صادقًا أم لا. أعترف أني إلى ذلك الحين كنت قد بدأت أحبه، رجوته كثيرًا حتى أنني عرضت عليه بدفع كل ما أملك من ذهب وأموال في سبيل خروجه، لكن كل هذا لم يجدِ نفعا.أغلق هاتفه بعد ذلك ولم يتصل بي إلا بعد موعد الحفلة بأسبوع.

آه يا جلال، لو تعرف كم عانيت من بعد عقدي بمنصور! لو تعرف أيضًا كم بكيت لتصرفه ذلك وكم تمنيت وقتها لو أني خُلقت رجلًا أو أني لم أخرج إلى هذه الحياة الظالمة بالأصل. كل صديقاتي بدأن يعيرنني على ما حدث، تألم والدي وخفت أن يُصاب بنوبة حادة فيصاب بجلطة ثانية ولكن الحمد لله أنه لم يحصل شيء.

نظر إليها جلال وكأنه يريد أن يتكلم، ثم قال:

- لم تخبريني عن والدتك البتة، وكأنك بلا أم .. ماذا عنها؟

تنفّست بعمق ثم قالت:

- نعم، أنا بلا أم وبلا أخ وحتى بلا زوج، وأخاف أن أبقى ،فجأة، بلا أب أيضا. لقد لقت أمي حتفها قبل سنوات في إحدى المستشفيات وهي تقوم بعملية غسيل كلى، انطفأت الكهرباء عن المشفى ولم تعد إلا بعد أن قُتِلَتْ أمي.

تألم جلال لما سمعه، فعزاها ثم سكتا قليلا. ما أرادَ أن يعيد لها الماضي التعيس ورأى أن يعود لأمر منصور:

- ماذا لو نرجع لحديثنا يا ثريَّا عن منصور. هل كنتِ تبادلينه بعض الحب؟

- الحب لا يكتمل إلا عندما يكون من الطرفين يا عزيزي، لكن لا أخفيك أني كنت أبعث لمنصور رسائل الحب وأنا أبكي على نفسي المنكسرة وعلى حال أهلي الذي يُرثى له. لقد سودت وجه عائلتي أمام المدعوين! لقد كانت صدمة ليست مثل أي صدمة يا جلال.

بعد أسبوع من موعد حفلة الزواج المكذوب ـ كما أخبرتك ـ تكلَّم معي منصور عبر "الانترنت" ورغم أن قلبي كان منكسرا، إلا أني ما أردت أن يفلت من يدي هو الآخر، فقد كنت أشعر إن تركني هو أيضا، فسأكون سبباً لتعاسة أهلي طوال الحياة. لقد كان والدي دومًا يتساءل . ."متى سيأتي اليوم الذي أراكِ فيه عروساً يا ثريَّ؟". . كنت أشعر أنه يتألم لعدم زواجي، وربما أكون في عداد العانسات التعيسات، وأنا أكره أن أكون عانسة تعيسة.

لُمتُ منصور لما قام به فأخبرني أن ما عمله كان خارجًا عن إرادته وأنه حتمًا سيخرج عما قريب. صدَّقته رغم شعوري بأنه يكذب. كنت حينها قد بدأت العمل في مدرسة حكومية، وكنت أحاول أن أساعد أخي أمين ببعض احتياجات المنزل ولكن ،فجأة، اتصل بي منصور وأمرني أن لا أذهب إلى المدرسة بحكم أني زوجته . .وهو لا يحب أن تعمل زوجته وتختلط بالآخرين ـعلى حد قولهـ ويفضِّل أن أبقى في المنزل؛ لأنه عيب كما هو شائع في القبائل اليمنية أن تعمل المرأة المتزوجة، وكأنهم يقولون إن المرأة التي تعمل هذا يعني أن زوجها لم يستطع توفير لقمة العيش لأسرته ؛ لهذا منعها من

العمل ، وهذا هو تفكير كثير من الناس هنا، بالرغم أني لا أوافقهم ذلك ، أخبرته بأني سأمتنع، لكن من سيساعد عائلتي ماديا؟ فأخبرني أنه سيقوم بإرسال مبلغ معين شهريًا باعتباره نفقتي كزوجةً تسكن في بيت أبيها. عقد منصور بي في الشهور الأولى لعام ٢٠١٢ امتنعت عن التدريس سنة كاملة ـ حتى بدايات عام ٢٠١٣ .

سؤالٌ قاطع كلامها من جلال:

- وهل ما زال يرسل لكم ذلك المبلغ؟

- للأسف يا جلال. . لقد أرسل لمدة ثلاثة أشهر فقط بعد أن انقطعت عن التدريس، بعد ذلك لم يرسل أي شيء ، ولم يف بوعده الذي قطعه على نفسه. كنت أحاول تذكيره بحال عائلتي عله يذكر ما يجب إرساله ، لكنه للأسف لم يكن يهتم لما أقوله البتة ، فلا هو الذي أرسل نفقتي كزوجةً له ، ولا هو الذي أتى لنقيم حفل الزفاف ونعيش معا.

- ماذا عملتِ بعد ذلك؟

- بعد أن رأيت عدم اهتمامه بي ، وعدم التزامه بالوعد الذي قطعه على نفسه ، اتخذت القرار بأن أعود لمهنة التدريس مهما كان الأمر، ومن وقتها للأسف زادت حدة تصرفاته وقساوته علي.

تألم الحارس جلال لحالها، ثم قال:

- لو كنت مكانك يا ثريَّا لفضَّلتُ أن أعيش عانسة على أن أتزوج.

- ولكنك لست في مكاني يا جلال. . فما أسهل أن تقول هذا وأنت لست في مكاني بالأصل.

- لقد تهاونتِ في كرامتك يا ثريَّا ، فأن تتهاونين ساعة فقط عن كرامتك حينها سيظن من حولك أنك بدون كرامة وأنك ستتخطينها دائما، لذا تهاوني في أي شيء إلا الكرامة فهي الشيء الوحيد الذي يُحفظ وإن فسد يومًا سيبقى فاسدًا طوال الحياة.

مسحت ثريَّا دموعها المنهمرة وهي تردد:

- يا لهذه الحياة الظالمة يا جلال!

- لا عليك يا ثريَّا. . ماذا عملتِ بعد ذلك؟

- لم أعمل أي شيء غير أني متزوجة ولكن بلا زوج، مثلي مثل اليمن تماما. . دولة بلا حكومة.

انتهت القهوة من فنجانيهما، فأفرغ جلال ما تبقى أسفل الفنجان إلى الأرض ثم نظر نحوها سائلا:

- هل ما زلتِ تحبينه؟

- أحبه فقط لأنه عقيدي.

- فلماذا لا تطلبين الطلاق إذًا وتتزوجين من تحبينه؟

نصف ضحكة قذفتها نحوه ، ثم قالت:

- ومن ذاك الرجل الذي سيأتي لينتشلني من حياتي التعيسة التي أعيشها؟ فلئن أبقى معقودة أفضل بكثير من أن يعيرني الكثير بأني لست متزوجة.

ضحك هو أيضًا باستهزاء قائلا:

- تسألين وكأنه الذي يغدق عليكِ بنعمٍ لا تعد ولا تحصى. إني أحبك يا ثريَّا ولا يهمني ماضيكِ أو ما قمتِ به، مستعد لبذل كل ما بوسعي للزواج منك.

بعينين بائستين نظرت نحوه ثم قالت:

- ومنصور؟

- تتخلصين منه ما دمت تعرفين أنه لا يحبك وأنتِ كذلك لا تحبينه فنتزوج ونعيش معًا بسعادة؟

بيأس سألت مرةً أخرى:

- ألم تقل لي أنك في مهمة خطرة؟ وكيف لرجلٍ مثلك أن يتزوج وهو في مثل هذه المهمة؟

- إن زواجنا يباركه قائدي أيضًا فلا تخافي.

- سأفكر في الأمر يا جلال . .حياتي معقدة جدا، واتخاذ قرار كهذا ليس بالأمر السهل.

وصلت بعض الطالبات إلى المدرسة فلم يستطع جلال أن يكمل الحديث مع ثريَّا ، لكنه قال أخيرا:

- سأترك عملي في أقرب وقت ممكن إن تطلب الأمر، ولكن لو أردتِ الحديث معي في أمرٍ مهم فعليك الاتصال بي.

قال تلك الجملة وتركها؛ لأن الطالبات وصلن ساحة المدرسة. غادرت ثريَّا غرفة الحراسة بسرعة متجهة نحو المعمل وهي تفكر "لماذا سيترك العمل؟".

أزمع جلال أمره على الرحيل. خرج ذلك اليوم إلى سوق الملابس، حتى يتنكر في السفر، فبعد أن تكلم مع المديرة في أمر ذهابه أصرَّت أن يبقى يومين فقط حتى تجد حارسًا آخر. وصل السوق ليرى أن الشعب يعيش حالة يُرثى لها، لم يمر بمثلها منذ عقود، أو بتعبير جلال "اليمن على كف عفريت". يدخل السوق فيرى أن الشحاذين أكثر من الباعة والأجسام التي تتهادى المشي أمامه ليست أجسام بني آدم إنما هي أجسام مخدَّرة مخبولة لا يمكنك أن تجد أحدهم إلا وبه مرضٌ يشتكي منه. عجائز وأطفال وحتى فتيات ممن عمرهن ما بين الثامنة عشر وبين الثلاثين الجميع يترجون المارة مادِّين أيدي الذل علَّ أحدهم يعطيهم ما يسدون به رمق جوعهم ولكن لا أحد يعطيهم؛ لأن الجميع هنا أصبح يستحق الصدقة، يمشي جلال هنا وهناك فلا يرى سوى وجوهًا كادحة تعكس ملامحها حال الشعب بأكمله. اشترى ما أتى من أجله ثم عاد سريعًا دون أن يشعر به أحد.

***

الفصل الرابع

-١-

ثريَّا الآن لا تعرف ماذا تعمل بشأن أسرتها . . لم يعد هناك في المنزل سواها، ولابد أن توفر أجرة المنزل وقيمة الأدوية اللازمة لوالدها وكذلك مصاريف المنزل واحتياجاته الأساسية.الأسعار مرتفعة جدا، وراتبها من المدرسة الخاصة التي تعمل فيها لا يكفي.

تذكرت أنها كانت تعمل من قبل أن تبدأ بتحضير الماجستير في مدرسة حكومية، وهذا هو الوقت المناسب لرجوعها؛ فتعمل في الصباح لدى المدرسة الخاصة ومن بعد الظهيرة تعمل في المدرسة الحكومية؛ حتى تستلم راتبين في آن واحد فتسد الفراغ الذي كان يسدّه أخوها.

هي تعرف أن هذا شيء متعب، أن تعمل من الصباح حتى المساء ثم تعود إلى المنزل لتحضر دروس مدرستين في آنٍ واحد، لكن ماذا عساها أن تعمل سوى ذلك!

ذهبت اليوم التالي نحو المدرسة الحكومية. . وبعد أن قامت ببعض المعاملات المعتادة. قبلت المدرسة ثريَّا بمعاودة العمل من جديد وبراتب ليس بالجيد، لكن وجوده أفضل من عدمه.

تذهب في الصباح للعمل في المدرسة الخاصة بينما بعد الظهيرة تداوم في المدرسة الحكومية حتى أتى نهاية الشهر. ذهبت نحو البريد لاستلام راتبها فتتفاجأ أنه لا يوجد مرتبات. خرجت لتلاقي الكثير من الموظفين خارج البريد . . الجميع يلعن الحال الذي يعيشه والأوضاع التي آلت إليها البلاد.

يا إلهي. .! كيف لها أن تقوم بدفع الإيجار . . هل ستنام العائلة في الشارع؟

اقتربت نحو أحد الواقفين أمام البريد، ممن ينتظرون الفرج بتسليم المرتبات فسألته:

- لماذا لا تُسلَّم المرتبات ؟

رد الرجل باستهزاء:

- يقول لك الحوثيون أخذوا مرتبات الموظفين من أجل توفير قيمة "القات" و "الشمة"[1] لمن هم في الجبهات . . عليهم لعنة الله من يومنا هذا إلى يوم الدين. . دمروا البلاد ومن يوم ما دخلوا صنعاء ولا شفنا منهم خير.

تدخّل شخصٌ آخر كان جالسًا وبيده سيجارة قد التهمت النار نصفها، فقال:

- والله ما دمر البلاد إلا أنتم يا أصحاب النعرات. قولوا لي، ما الذي استفدتموه من ثورتكم هذه؟ . . نعرتم على نعمتكم لا غير.

بدآ يتجادلان، كلٌّ منهما يحاول إثبات بطلان رأي الآخر. نظرت ثريَّا نحوهما وقلبها يحترق. . تمتمت:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

مشت قليلًا لتسمع صوت سيارة الشرطة أتت مسرعة وعليها مجموعة من العسكر . . ولكنهم في الحقيقة لا يرتدون الزي الرسمي للعسكر. لقد كانوا يرتدون الملابس اليمنية التقليدية من "ثوب

(١) مسحوق مخدر من عائلة التبغيات حيث يتم تصنيعها من رماد عشبة الرمث وعشبة الورقة

وعسيب مع غترة"[1] يربطون بها على رؤوسهم. نزل أحدهم وكما يبدوا أنه كبيرهم، لقد عرفت ذلك حين التفَّ بعض العسكر حوله وهو يقول باستكبار:

- ما لكم متجمعين هنا؟

رد ذلك الرجل الذي سألته ثريَّا قبل قليل:

- منتظرين نستلم المرتبات.

اقترب من ذلك الرجل ثلاثة عسكر وبطحوه أرضا، بينما قال كبيرهم:

- منتظر مرتبات ، والدولة تحارب العدوان بدلا عنك يا خائن؟

نظر الرجل المبطوح أرضا نحو كبير العسكر دون أن يجيب، ظلّ يحدّق بخوف حتى تدخل رجلٌ آخر من الجمع:

- ولكن ما ذنب أطفالنا.. يموتون من الجوع يا فندم؟

حزر كبير العسكر صاحب الصوت بنظرة توعد، ثم قال:

(١) ملابس يمنية شعبية

- من يريد مرتبات فليذهب إلى جبهات القتال . . البلد تواجه عدوان وأنتم لا هم لكم سوى المرتبات.

حاول بعض الحاضرين التدخل لكن صوت كبيرهم سبق الجميع:

- عسكر..! خذوا كل شخص يطلب مرتباته . . هؤلاء خونة الوطن.

قام العسكر فأخذوا بعض الحاضرين ممن رفض الانصياع لأوامر ذاك الرجل بعد أن قاموا بإطلاق بعض الرصاص نحو السماء للترهيب وإسكات من يحاول رفع صوته، بينما الآخرون ممسكون ببنادقهم الجاهزة، لإسكات من يحاول الاحتجاج.

خافت ثريَّا أن يصيبها مكروه فأسرعت وأوقفت إحدى الباصات متجهةً نحو المنزل وهي تقول في نفسها "أي مصيبةٍ حلَّت عليّ يا ربي!"

لقد تأخَّرَتْ كثيرًا على دفع الإيجار، فلقد وعدت صاحب المنزل أن تعطيه أمواله عند استلامها المعاش . . ماذا ستقول له الآن؟

لن تنتظر حتى تُجبر العائلة على الخروج من المنزل لتنام على الرصيف، انتظرت حتى المساء ثم اتصلت بالحارس جلال ربما يساعدها في هذه المحنة. بتوتر زائد أخذت هاتفها وبحثت عن رقم الحارس جلال ثم اتصلت. أتاها الرد الآلي "الرقم الذي تتصلون به قد يكون مغلقًا أو غير متوفر حاليا، الرجاء . . ."

- أين أنت يا جلال؟

جلال ليس من عادته إغلاق الهاتف . . ما الأمر؟ حاولت ثريَّا الاتصال عدة مرات لكن لا جواب.

-٢-

ذهبت ثريَّا صباح اليوم التالي نحو المدرسة قبل الجميع، تريد أن تتحدث مع الحارس جلال في أمر قطع المرتبات ومشكلة الإيجار الذي لم تستطع دفعه. وصلت المدرسة وكان بابها مغلقًا من الخارج ولكن ليس مقفلا.

سحبت مغلاق الباب ثم دخلت وهي تنادي:

- جلال .. ! جلال . . !

لكن لا جواب. فتحت باب غرفته فكانت الطامة الكبرى أنها وجدته مذبوحًا والدم قد بدأ يتجلط في بعض الأماكن من جسمه. لم تستطع أن تتمالك نفسها فصاحت حتى سمعها بعض المارة. لم يمر من الوقت إلا القليل حتى اجتمع الناس حول الضحية، وبدأ الأطفال يتسلقون أسوار المدرسة لمعرفة ما يجري، بعضهم يتألم لما تراه عيناه وهو يقول "لا حول ولا قوة

إلا بالله" وبعضهم يحاول حجب الرؤية عن عينيه من هول الموقف وهو يردد "إنا لله وإنا إليه راجعون" وجاء مجموعة من الرجال على متن سيارة الشرطة للتحقيق في الأمر.

كانت ثريَّا شبه مغمى عليها، تبكي بطريقة هستيرية وتتلفظ ببعض الجمل التي تستغيث بها. ذلك الحادث روّع الجميع حتى أن المدرسة توقفت عن التدريس ذلك اليوم.

أخذت ثريَّا حقيبتها وهي تبكي محاولةً الخروج من المدرسة بعد أن أخذت الشرطة الجثة وإذ بها تسمع رجلًا يتصرف بطريقة جنونية وهو يردد " قد قلت لهم . . علي له وعلي له وعلي ما شيء له. .أيووووو"

انتبهت ثريَّا لهذا الصوت وكأنها ليست المرة الأولى التي تسمعه فيها. نظرت نحو الرجل الذي أتى منه الصوت وإذ به يتصرف بجنونية زائدة. تذكرت هذا الصوت عندما كانت تجلس مع الحارس جلال ومدى اهتمامه به عند سماعه. اقتربت منه قليلا لكنه فرَّ بعد أن رآها متجهةً نحوه سالكًا طريقه بين أزقة صنعاء العتيقة. مرَّت ثلاثة أيام على الحادثة و ثريَّا تبكيه ليلها مع

نهارها. لم يعد محمد الذي يحتل قلبها، لقد تربّع الحارس جلال على قلبها ، بكل ما قام به من أجلها .

مرّت أيام على الحادثة ولا يوجد حل لدفع الإيجار، فقامت ثريَّا ببيع ما تبقى من ذهبها الذي أعطاه لها عقيدها كمهر لها، ودفعت الإيجار، واشترت أيضا بعض الأدوية اللازمة لأبيها المسكين.ثريَّا أصبحت الآن مجبرة على التدريس في المدرسة الحكومية؛ لأن حكومة الحوثيين يتّهمون كل من يتخلف عن التدريس بالخيانة للوطن ويهددونهم بفصلهم من وظائفهم واستبدالهم.

وهي في طريقها نحو المدرسة الخاصة ذلك الصباح وجدت ذلك الرجل المجنون يحوم في المكان ويردد جملته المعهودة، فاقتربت منه. انزوى في إحدى الأزقة فتبعته ثريَّا حتى رأته فبادرته:

- سمعتك وأنا برفقة جلال أكثر من مرة . . هل تعرفه؟

نظر خالد ـصديق جلالـ نحو ثريَّا ، وبحركة جنونية حاول الابتعاد عن ثريَّا وتجنب الحديث معها، لكنها أصرّت على الحديث معه:

- هل تعرف جلال؟

- نعم أعرفه! وقد حذرته أكثر من مرة ونصحته أن يرحل من المدرسة لكنه لم يستمع لنصيحتي.

بدأت ثريَّا تبكي ولكن بطريقة هادئة لا يُسمع منها سوى بعض الهمس فقط:

- ومن الذي قتله؟

- أنتِ من قتلتيه.

اندهشت ثريَّا لما يقوله، فردّت:

- إنك مجنون بحق وحقيقة، أنا لست من قتله، كيف لك قول هذا؟

- إنه أحمق، وقد نال عقابه وانتهى.

لم تفهم اللغز الذي يحاول منها أن تفهمه، لكنها مسحت دموعها المنسكبة من عينيها وهي تلعن القاتل أيًا كان، ولكن الرجل حذرها من أن تخبر أحداً مهما كانت منزلته لديها، وطلب منها أن لا تحاول التحدث معه إن رأته مرةً أخرى مهما كان الأمر وإلا كان مصيرها مصير جلال، ولم يخبرها بهذا إلا لأن جلال صديق عزيز عليه. قال كلماته الأخيرة ثم دس يده في جيبه وأخرج ورقة فناولها قائلا:

- لقد وجدت هذه الورقة في جيب جلال بعد مقتله، أظنها لكِ أنت.

سلّمها الورقة، ثم ذهب ولم تره بعد ذلك البتة . كانت تفكر "كيف استطاع أخذ الورقة من جيبه؟ ماذا لو أنه هو القاتل؟ لا .. لا هو صديق جلال كما أعتقد ولن يقتله".

يا للتعاسة! كل من أحبتهم إما أن يتركها أو يختفي عنها أو يُقتل. أي حظٍ سيئ هذا!

وصلت المدرسة لتتفاجأ بمصيبةٍ أخرى، لقد مُنع التدريس في المدرسة بحجة أنها كانت تدعم جهات معادية للحكومة، وحوَّلتها إلى مخزن لتبعهم.

ماذا ستعمله ثريَّا ؟ إغلاق المدرسة الخاصة معناه أنها لن تدرِّس فيها بعد اليوم، وهذا يعني أنها لن تستلم راتبا نهاية الشهر، وهذه مصيبة أخرى حلّت عليها.

رجعت إلى المنزل لا تعرف ماذا تعمل. دخلت غرفتها ثم فتحت الورقة التي سلمها صديق جلال. قرأت السطور الأولى والدمع يسيل من عينيها:

"حبيبتي ثريَّا! كتبت هذه الرسالة ،ولعلها رسالة الوداع مني إليك ، لابد أن أسافر الليلة ولا أدري إن كنت سأعود أم لا.لقد أحببتكِ أكثر من أي شيءٍ آخر، أحببت شجاعتك وصلابتك في مواجهة الحياة. أنتِ امرأة حديدية . . نعم امرأة حديدية ولن يهزمك الزمان أبدا. إذا جمعنا الزمان يومًا ما فلن أنسى له صنيعه هذا.

محبك: جلال"

انهمرت دموعها بغزارة وهي تقرأ كلماته الأخيرة، شرعت تبكي ولسانها يردد اللعنات على من كان سببًا في قتل آخر حبٍ لها ، ظلت تبكي حتى نامت.

استيقظت صباح اليوم التالي على طرقات في باب المنزل. إنه صاحب المنزل ويريد الإيجار. همست بأختها تخبره أنها خرجت. هدأت قليلًا تفكر في أمر الإيجار ومصروفات المنزل:

- يا إلهي! ما العمل؟

ما زالت تسأل نفسها هذا السؤال في كل لحظة.

أتى الليل فقررت أن تتصل بمنصور وتخبره بالحالة التي وصلت إليها روحها من اضطرابات داخلية مترجيةً إياه أن يخرج لإنقاذها وإنقاذ عائلتها لكن لا حياة لمن تنادي، فمنصور لا يهتم سوى بنفسه وبشهوته الحيوانية. إنها لا تعرف لماذا كل هذا الجفاء وكل هذه القسوة التي يظهرها لها. كانت تسأله دومًا عن سبب كل هذا التأخير، ولكن منصور الزفت ـ كما تصفه ـ لا يأبه لها ويجيب عن سؤالها ذاك بأعذارٍ واهية، كتعذره بالعمل وتعذره بكفيله الذي لا يسمح له بالخروج وغيره من الأعذار.

أهو ينتقم منها بتصرفه ذلك ؟ وما الذي عملته ثريَّا حتى ينتقم منها بهذه الطريقة؟

لا شيء تعرفه ثريَّا عن سبب كل هذه المعاناة.

-٣-

إنها التاسعة مساء. دخلت شيماء ـالأخت الصغيرة لثريَّا والبالغة من العمر سبعة عشر عاماـ، إنها أيضًا جميلة مثلها مثل أختها بل ربما أجمل منها، يبدو أن هذا الجمال لم يأتِ من فراغ فالأم كانت جميلة أيضا. اقتربت شيماء من أختها ثريَّا وبصوتٍ هادئ نادت:

- ثريَّا!

التفتت ثريَّا:

- شيماء! ما الذي أتى بك الآن؟

اقتربت شيماء من أختها بتودد ثم قالت:

- غدًا حفل تخرجنا من الثانوية العامة، ولابد أن يدفع كل طالب أربعة آلاف ريال حتى نقيم الحفل . . كل زميلاتي دفعن ما عليهن ولم يبق سواي.

أخذت ثريَّا نفسًا عميقا، وكتمت كل تلك الآلام التي بداخلها، ثم قالت:

- ولا يهمك حبيبتي . . الحفل متى بالضبط؟

- الحفل الخميس القادم.

- همم . . سأحاول توفير ما استطعت.

سكتت شيماء قليلًا ثم أردفت:

- كما أني أحتاج إلى عباءة جديدة ؛ لأن العباءة التي معي أصبحت قديمة جدًا وصرتُ أستحي من الخروج بها أمام صديقاتي.

أخرجت ثريَّا تنهيدة عميقة، ثم قالت:

- حاضر، ولا يهمك.

ما أرادت أن تحرم أختها أيضًا من أشياء حُرِمَت منها هي أيضا. خرجت شيماء بينما ثريَّا اتجهت نحو خزانة ملابسها وبعثرت بعضهن حتى أخرجت عباءة كانت موضوعة بعناية، وحتى يبدوا أنها ما زالت جديدة، لقد احتفظت بها منذ أن كانت عزباء كذكرى من حبيبها الأول "محمد" ووضعتها في كيسٍ جديد وخبأتها خلف الخزانة.

أتى اليوم التالي فنادت أختها شيماء بينما العباءة التي أخذتها من خزانتها بالأمس تخفيها خلف ظهرها وكأنها مفاجأة للأخت شيماء. دخلت شيماء مع ابتسامةٍ عريضة تعلو شفتيها الحمراوين وأختها ثريَّا تقول:

- عندي لك مفاجأة . . احزري!

ابتسمت شيماء وأبدت عدم معرفتها بما تخفيه أختها خلف ظهرها، فقالت ثريَّا بعد أن أخرجت العباءة وهي تعرضها أمامها:

- أجمل عباءة لأجمل أخت في العالم.

فرحت شيماء بتلك المفاجأة ـالتي هي في الأصل ليست مفاجأةـ فرحًا كثيرا، فأخذتها ولبستها فأعجبتها ثم خرجت وهي

تشكر أختها ثريَّا بامتنان. كانت شيماء وقتها سعيدةً جدا لكنها لا تعرف كم من الدموع انساحت على خد أختها . . إنها لا تعرف أنها أهدتها أجمل ما كانت تخبئه في حياتها . . إنها هدية الحبيب الأول ـمحمدـ الذي لم تنساه حتى اللحظة .

دخلت شيماء غرفة الجلوس، وكان التلفاز يرطن ببعض الأخبار التي يئس الشعب من سماعها ،وفجأة، رأت رجلًا يتكلم على قناة يمنية . . أمعنت النظر إليه، ثم صاحت:

- ثريَّا. .! ثريَّا. .!

- نعم!

- تعالي . . تعالي بسرعة.

دخلت ثريَّا غرفة الجلوس فتتفاجأ بما لم تتوقع أن يكون يومًا ما مفاجأة أو حلما. تسمرت ثريَّا مكانها وكأنها لا تصدق ما ترى وهي تقول:

- محمد . . !

حاولت التأكد من أنه ليس محمد، إلا أن القناة قد أظهرت الاسم على الشاشة، نظرت شيماء نحو أختها فقالت:

- أليس هذا محمد، الذي أتى ليخطبك عندما كنتِ في الجامعة؟

- أظنه هو . . ولكن . . .

- ألم تقل عائلته أنه قد مات؟

- لا أدري . . أكاد أجن . . لا أدري.

دخلت ثريَّا غرفتها بخطواتٍ سريعة، فأحكمت إغلاق الباب ومن ثم فتحت برنامج "الفيسبوك"، وبدأت تبحث في محرك البحث عن اسم الحبيب الذي تركها وذهب، فظهر لها عدة حسابات بنفس الاسم . .وفجأة، وقعت عينيها على حساب محمد الذي يحمل صورته الشخصية. فتحت الحساب على عجل وبدأت تتأكد ما إن كان هو أم لا، ثم قالت بفرح شديد.

- إنه هو . . والله إنه هو.

فرحةٌ غامرة يشوبها الحزن والألم، تقول في مضمنها: "ولكنني معقودة".أرسلت طلب صداقة لمحمد ورغم كثرة متابعيه إلا أنها تفاجأت بقبوله للطلب في الدقيقة نفسها. أتتها رسالةً خاطفة:

- ثريَّا!

ردت عليه بكلمات نصفها خاطئة لارتباكها وهي تكتب:

- نعم .. أنت محمد .. أليس كذلك؟

- نعم أنا محمد.

أرسلت مجموعة من التعبيرات التي تعبّر عن مدى فرحتها بالخبر، وكذلك مدى حزنها لفقده، ثم قالت:

- لماذا تركتني يا محمد واختفيت كل هذا الوقت .. ألم يقولوا أنك قد متَّ؟

انتظرت دقائق وكأنه يكتب رسالة مطوّلة، أخيرًا انبثقت تلك الرسالة:

- قصة طويلة يا ثريَّا. كنت قد جهزّت كل ما يلزم من أجل القيام بحفلة خطوبتنا حتى أعلن أمام الجميع مدى حبي لك، لقد

أحببتك أكثر من أي شيء في العالم ، كما تعرفين أني كنت ممن ساندوا ثورة ١١ فبراير، ومن أجل ذلك قمت بحملات إعلامية على النظام حتى قام مجموعة من العسكر واعتقلوني في السجن عدة شهور. قبل خروجي من السجن عرفت أن سبب دخولي السجن هو زميلنا سليمان. . لا أعرف "هل ما زلتِ تذكرينه أم لا"، لقد حرَّض مجموعة من العسكر للقبض علي بحجة خروجي ضد الحزب الحاكم، ولكن كان هدفه أن لا نقيم مراسيم الخطوبة، ولكن حمدًا لله، فبعد نجاح الثورة أخرجوني من السجن لأكتشف أن وراء كل ما حصل لي هو سليمان.

ردت ثريَّا بغضب:

- ولماذا لم تأتِ بعد خروجك من السجن يا محمد؟

- لأن سليمان قام بنشر إشاعة أني قد قُتلت ضمن شهداء الثورة، وفي حقيقة الأمر بعد معرفتي بعلاقتك مع شخص آخر قررت السفر دون علم أحد، حتى أهلي لم يعلموا بذهابي. احذري يا ثريَّا، سليمان تحتَّم أنك لن تتزوجين طوال عمرك؛ لأنكِ رفضتيه عندما تقدم إليكِ للزواج.

- الله يسامحك يا محمد.

- ...

- هل تزوجتَ يا محمد؟

- لا لم أتزوج بعد.

- ولِمَ لم تتزوج؟

- في الحقيقة لسببين، السبب الأول أني الآن مشرَّد ومهدّد بالقتل من قبل شخصيات معينة في اليمن، أما السبب الثاني فأنا لم أستطع نسيان حبك أبدا .. لقد كان حبي لكِ صادقًا يا ثريَّا.

بكت ثريَّا كثيرا ..لم تكتب بعد رسالته تلك حتى أتتها منه رسالةٌ أخرى:

- وأنتِ .. هل تزوجتِ؟

- نعم تزوجت .. لكن بلا زوج ..

أرادت أن تخبره أنه "مثلها مثل اليمن دولة بلا حكومة" لكنها اكتفت بتلك الجملة فقط، فرد عليها:

- كيف هذا؟

شرحت له قصتها مع منصور، فسألها عن سبب عدم طلبها للطلاق وكل تلك الأسئلة التي تخطر بباله وهي تجيبه، حتى بادرته ثريَّا أن قالت:

- ليتك لم تكن حيًا يا محمد!

تفاجأ محمد بما قالته فسألها عن السبب فقالت:

- لأني بعد معرفتي بأنك ما زلت حيًا زاد ذلك من تعاستي . . لم أحب أي شخص كما أحببتك أنت . تصنَّعت الحب لمنصور عندما عقدنا دون أن أبالي من يكون وكذلك تصنعت الحب لكل من تقدم للزواج بي؛ لأن الشخص الذي كنت أحبه حبًا حقيقًا ظننته قد توفي.

شعرت بالحرقة والألم لحالها، حاولت أن تسأله إن كان ما يزال يحبها أم لا، لكنها لم تجرؤ على ذلك، فاكتفت بالسكوت حتى رد على ما قالته:

- لو تعرفين كم من الآلام والعذاب لاقيته في السجن يا ثريَّا ، لقد حُبست أشهر قليلة لكنها أكلت من عمري وكأنها عشرات

السنين، رغم كل شيء إلا أني ما زلت أحبك أكثر مما تتخيلين، لكنني لا أستطيع الرجوع يا ثريَّا.

- آهٍ يا محمد. قامت الثورة وانتهت . . تغيرت أوضاع البلاد حتى وإن كانت إلى الأسوأ المهم أنها تغيرت، ذهب حكام وخلفهم آخرون، ذهبت حكومات وجاءت غيرها، كل هذا حصل ولم يتغير وضعي بعد . . يا لهذا الركود الحاصل في حياتي!

لم يعد محمد ذلك الشخص الذي كانت تحبه كل ذلك الحب بعد أن عرفت أنه حي، لقد احتل جلال كلّ الأماكن ، لم يكن محمد شجاعًا كجلال، فلقد هرب من الواقع أما جلال فقد واجه الواقع وحارب من أجله حتى آخر لحظةٍ في حياته.

تركت محمد فهو لن يستطيع العودة، ورجعت نحو منصور. بدأت بالتحية كعادتها ثم كتبت ما أرادت قوله:

- منصور . . لقد انتظرتك كثيرا، ويبدو أني سأنتظر أكثر. أظنك قد تزوجت في المملكة دون علمي. اتخذت قراري واتفقت مع والدي، إما أن ترجع ونكمل ما بدأناه وإلا فإني سأطالب بالطلاق.

انتظرت رده بفارغ الصبر، كانت تلعنه خلالها، وبعد نصف ساعة انبثقت رسالة. فتحتها بسرعة لتتفاجأ أنه أرسل لها رسالة ترحيب مسائية متجاهلًا ما أرسلته . أرسلت رسالة أخرى تطلب منه أن يرد على الرسالة، فأجابها أنه زوجها ولا يريد الطلاق ولابد أن تصبر حتى يرجع. زاد غيظها لبروده وعدم اهتمامه بها فأرسلت رسالة أخيرة.

- طفح الكيل يا منصور. استعبدتني أكثر من اللازم واستخففت بي أكثر مما يمكن أن يستخفه رجل بامرأة. لا أنت الذي رجعت وتزوجتني ولا أنت الذي طلقتني، إن لم تتخذ القرار بنفسك فسأطلب الطلاق من المحكمة.

انتظرت الرد لكن منصور يبدو أنه قد نام، ولم يرد عليها.

فكَّرت كثيرًا في الأمر ثم قررت أخيرًا أن تقوم بتنصيب محام لاستلام قضيتها وتقديم ملف للمحكمة تطلب فيه الطلاق بحجة غياب عقيدها قرابة الخمس سنوات دون رجعة ودون عمل حفلة زواج وحتى دون أن يدخل عليها من قبل وفوق كل هذا دون أي حجة يؤخذ بها.

-٤-

إنه الحادي عشر من أبريل/نيسان لسنة ٢٠١٧، اتصل والد ثريَّا بابن أخيه ـمصعبـ الذي تخرج من كلية الحقوق وهو يعمل الآن في المحاماة. التقت ثريَّا بمصعب وقصت عليه القضية كلها واتفقا على أن يقوم بتقديم طلب للمحكمة بفتح قضية لانفصال ثريَّا عن عقيدها.

عاد مصعب من المحكمة مباشرةً نحو منزل ثريَّا. خطواته لا تبشر بخير. التقيا وبدأ يشرح لها ما عمله في المحكمة.

- لقد فتحت القضية ولكن المحكمة طلبت توفُّر أحد الشرطين لانفصالكما ؛ إما أن يقوم الزوج بالطلاق وينتهي كل شيء، أو تقوم الزوجة بخلع الزوج ولكن بعد أن تعيد مهر الزوج كاملا.

صدمها ما قاله، فهي قد باعت كل ما تملك. نظرت نحو مصعب ثم قالت:

- اللعنة على قوانينهم هذه ، ألا يعلم هذا القاضي الأبله بأني أتصل بعقيدي وأترجاه منذ قرابة الخمس سنوات لكي يرجع دونما فائدة ؟

- هذا هو ما يقوله الدين والقانون ولا شيء فوقهما.

تأففت ثم أردفت:

- وكم المبلغ الذي يجب أن أدفعه؟

أخرج مصعب عقد الزواج لتتفاجأ ثريَّا أن المبلغ كان مليونًا ومائتا ألف ريال يمني. نسيت أنه من عادات بعض العائلات في صنعاء يدفعون كل تكاليف الزواج جملةً واحدة ثم يكتبونها باسم المهر. نظرت نحو مصعب واليأس قد دبّ في عينيها الضامرتين، هي ليست مثل أولئك الذين يكسبون أموالهم على حساب أديم الفقراء ودمائهم. بهدوء مصطنع سألت:

- هل لابد أن أدفع كل هذا المبلغ حتى أُخلَع من منصور؟

رفع مصعب نظره نحوها وهز رأسه بالموافقة. ردت ثريَّا باستسلام:

- ولكنني لا أملك حتى ربع المبلغ، فأنت تعلم جيدًا أننا بالكاد نوفر أجرة المنزل.

- إذن لا داع للخلع يا ابنة عمي، فلا حل ثالث. كوني عاقلة واصبري ، فلعله يعود عما قريب.

نهضت وتركته ساحبةً خلفها ذلك الجسم المكتنز بالأوجاع والآلام، واتجهت نحو غرفتها. كان في عينيها تساؤلا ودموعا، ما إن دخلت غرفتها حتى انفجرت بالبكاء وارتمت على سريرها. تنظر هنا وهناك وكأنها تبحث عن مخرج، فجأة، توقفت عيناها على صورة معلقة في جدار غرفتها، لقد كانت تجمعها تلك الصورة بأمها وأخيها. بدأت تصرخ "لماذا ذهبتم وتركتموني لوحدي أركض في هذه الحياة. . لماذا؟ لماذا تظلمني الحياة وتتركني أتجرع كل هذه الآلام؟ أليس لديها من تنشغل بتعذيبهم غيري" كان صراخها مشحوبا، يملأه الخيبة والاستسلام والتمرد في آنٍ واحد.لم تكن تتمنى العيش دون منغصات، فقط كل الذي كانت تتمناه من هذه الحياة هو أن تترك لها من يتقاسمون معها تلك الحياة التعيسة. قامت من فوق سريرها واتجهت نحو الصورة تلمسها بشغف وتصرخ "إما أن تكونوا معي أو أن أكون معكم"

صرخت وبكت حتى هدأت. فكّرت بالانتحار كثيرا، لكنها في كل مرةٍ تفكر بالانتحار يؤنبها ضميرها في أمر أبيها وأختها الصغيرة . . من سيعتني بهما ؟ كانت ترى أن كل من رحلوا قد استودعوها أختها وأباها ولابد أن تحفظ الأمانة.

خرجت من غرفتها فغسلت وجهها ثم اتجهت نحو غرفة والدها، فتحت الباب بهدوء، حتى لا تزعجه إن كان نائما. يا له من تعيس هو الآخر! مريض لا حول له ولا قوة. لم يكن نائمًا، فهو لا ينام في الليل سوى سويعات، فكيف له أن ينام في النهار؟ دخلت بهدوء فوجدته متكورًا على سريره والدموع تنزل من عينيه بغزارة. ما إن دخلت الغرفة حتى هرعت نحوه:

- أبي . . هل من مشكلة؟

لا جواب، فقط يبكي بهدوء، وتلك الدموع تتساقط من عينيه كالبرد. مسحت دموعه وقلبها يحترق ألما:

- ألا تكفّ عن البكاء يا أبي وتخبرني بكل ما حصل؟

ما كانت تعرف أن الرجال أيضًا يبكون، ولم تكن تتخيل أن الرجال يمتلكون كل هذا القدر من الدموع، إنها لا تعرف أن

الرجال لا يبكون إلا عندما يشعرون بالعجز التام أمام هذه الحياة. بصوتٍ متقطع أجاب والدها:

- أبكي يا بنيتي لأني لم أستطع أن أكون والدًا مثاليًا لكم . . لم أستطع توفير حياةً كريمة من أجلكم ، لقد تركتك تتحملين كل شيء لوحدك.

قال تلك الكلمات وارتفع معهن نحيبه، اقتربت ثريَّا من والدها واحتضنته، ثم نظرت إليه وقالت.

- لا تقل هذا يا أبي، فأنت لم تتركني لوحدي، بل كنت معي دائمًا وستظل معي، فأنا أستمد قوتي من وجودك، أرجوك أن لا تقلها ثانية.

تحدثت معه قليلًا، ثم قامت، بعدها أعطته حبة من المهدّئ وقبّلت جبينه ثم خرجت.

-٥-

انبلج صباح الثالث من اكتوبر/تشرين الأول لعام ٢٠١٧ يكشف عن يوم تعيسٍ آخر لهذا الشعب المكلوم.ثريَّا لم تعد تعرف ماذا تعمل حيال عائلتها التي ربما يأتي الغد ولا تجد ما تقدمه لهم من طعام. قررت أن تخرج وتبحث عن عمل في أي مكان، المهم أن تجني من ورائه ما تسير به أمور عائلتها المسكينة.

ذهبت تجوب الأسواق، تبحث عمَّن يعمل الخير من أجلها ويقبلها تعمل ولو حتى بأجرٍ زهيد. رغم ملامح الجمال الذي ما زال باديًا من خلف ذلك الخمار إلا أن كل من تسألهم يردونها خائبة، فهم لا يريدون عاملًا يدفعون أجرته نهاية الشهر نظرًا لتدهور حركة السوق وركود العمل؛ فالجميع أصبحوا يسيّرون أعمال محلاتهم بأنفسهم. بدأت تشعر باليأس وهي تقول في نفسها "أي عاصمةٍ هذه لا تجد فيها عملًا ولو حتى مقابل قوت يومك؟" رأت محلٍ ملابس رجالية ونسائية، دخلت الباب بخطوات

متقاربة، الخجل يسيطر عليها، باستحياء ألقت التحية وبدأت تسأل ما إن كان بإمكانها أن تجد عملا. نظر إليها ذلك الشاب الواقف على الطاولة وأخبرها بأسف أن المحل لا يحتاج إلى عمال إضافيين، فهو إلى جانب صاحب المحل يكفون وزيادة نظرًا لقلة الزبائن، فالجميع لم يعد يهمهم ما يلبسونه بقدر همهم توفير ما يأكلونه. التفت رجل كان يجلس القرفصاء يشرب شاي في الزاوية ينقِّل يده في الملابس المرصوصة وكأنه يرتبها. ترك الملابس التي كان يرتبها ونهض متجهًا نحو ثريَّا. كان ينظر إليها بعين تكتظ بالشهوة وقلبٍ قد اجتاحه الجفاف العاطفي، ابتسم بخبث ثم قال:

- من قال لك يا عصام أن ما في عندنا عمل؟ كنت أبحث على عامل محترم وخصوصًا لو كانت فتاة، فلدينا قسم للنساء، بمقدورها تعمل فيه.

بحياء باذخ حاولت الرد:

- الحمد لله . . منذ الصباح وأنا أبحث عن عمل ..أعدكم أنني سأبذل جهدي لتطوير تجارتكم . . كم ستعطونني راتبا في الشهر؟

قذف الرجل ضحكة خفيفة مصحوبة بابتسامة غامضة ثم قال:

- لا تهمي الراتب ، نحاسبك مثلما نحاسب أي شخص . . أو لأنك جميلة ستطلبين أكثر؟

ضحكة اعتذار وترجي:

- لا . . لا، أحببت أن أعرف لا أكثر.

اقترب الرجل منها أكثر ثم قال:

- خمسين ألف ريال . . ها كيف؟

- مناسب . . نعم مناسب جدا . . متى أستطيع مباشرة العمل.

- إذا أردتِ فمن الآن.

نصف ابتسامة من ثريَّا توحي بالتعب:

- اليوم أنا مرهقة جدا، لكثرة المشي بحثًا عن عمل ، لكن ماذا لو أبدأ مباشرة عملي من الغد؟

- اتفقنا.

خرجت من المحل وهي تحمد الله أنها وجدت عملا، بينما ذلك الرجل قذف ما بقي من الشاي في فمه ونظر نحو ذلك العامل وغمزه قائلا:

- سَبَرَتْ لنا[1]

باستغراب سأل العامل:

- عم سليم! أنت كلّمتني أن المحل لا يحتاج إلى عمال إضافيين، ومن يبحث عن عمل نقول له لا يوجد..لماذا تغيّر رأيك؟

باستهزاء أتاه الرد:

- ما كل من يبحث عن عمل نُردّه . . يا حبيبي.

غادرت ثريَّا المحل تكاد أن تطير من الفرح؛ لأنها وجدت أخيرًا عملًا تقتات منه عائلتها المسكينة. استقلت باصا متجها نحو المنزل. أخذت بعض حاجيات المنزل من بقالة الحي كدين ووعدته أنها قد بدأت العمل وحتمًا ستقضيه كل ما عليهم من ديون نهاية الشهر، تذمر صاحب البقالة قليلًا ثم أعطاها ما طلبت

(١) أي أتت الأمور كما نشتهي

على أن آخر موعد لتسديد ما عليها من ديون هو نهاية الشهر كما وعدته.

بدأت يومها التالي بأن لبست أجمل ما لديها لتظهر منظر العاملة المهتمة بمظهرها أمام الزبائن. ما إن وصلت حتى رحب بها العامل هناك. لم يكن راضيًا عن تصرف العم سليم. هنا في صنعاء صاحب العمل يسميه العمّال بلقب "العم" كاحترام لمكانته،حتى وإن لم يكن كبيرًا في السن. دخلت المحل وبدأ العامل يعرف باسمه، أخبرها أن اسمه "عصام" ثم بدأ يشرح لها ما يجب عليها عمله. بعد أن انتهى اقترب منها ، وبصوت خافت خافَت قال لها:

- العم سليم إنسان سيئ، احذري من تصرفاته.

ظنت أنه سيئ بتعامله القاسي مع العمال، أو أنه يؤخر أجرتهم، فردت بابتسامة:

- شكرًا لك . . طبعًا سأفعل.

بنشاط بدأت يومها حتى تبدي مدى اهتمامها بالعمل للعم سليم فيعطيها أجرتها دون مراوغة. أتى العم سليم صباح ذلك

اليوم مبتهجا. ما إن دخل المحل حتى رأى ثريًّا واقفة طرف المحل ترتب بعض الأشياء كما أخبرها عصام. باهتمام بالغ كان يتفحص جسمها الجذاب ..صاح ترحيبًا بها:

- يا حيا الله بالعاملة الجديدة. اليوم يومنا يوم نور، يا الله أرض علينا برضاك.

شكرته بامتنان ثم واصلت عملها. لم يهدأ بال العم سليم من أول يوم بدأت تعمل فيه. حاول مرات ومرات الاقتراب منها أو لمس جسمها أو حتى رؤية وجهها أو طرفا من جيدها ولو حتى من بعيد لكن لا فائدة. كان دائمًا يقول لعصام إن الشغل بذلك الجسم الناعم حرام. ثلاثة أيام مرَّت وهو على هذا الحال يحاول اقتناص فرصة لمقابلتها لوحدها ..مغازلتها أو الضحك معها حتى يتقرب منها أكثر لكنها كانت تتهرب مما يحاول القيام به بابتسامات غير مفهومة، فهي لا تريد أن يكرهها فيطردها من العمل، كذلك لا تريده أن يقترب منها أكثر، حتى لا يتمادى في تصرفاته. لم تستمر كثيرًا وهي تحاول التهرب من حركات العم سليم الخبيثة حتى أتى آخر أسبوع من شهر أكتوبر/تشرين الأول. في المساء اتصل به عصام يخبره أنه لن يأتي يوم غد نظرًا لمرضٍ

ألمّ به، لم يصر على مجيئه كالعادة بل وبكل سرور سمح له بالتغيب، ثم أغلق سماعة الهاتف وابتسم ابتسامةً خبيثة، وهو يقول في نفسه "غدًا يومنا يا ثريَّا ".

في اليوم التالي ثريَّا كعادتها تلبس ملابسها الأنيقة ثم تذهب للعمل. وصلت المحل ذلك اليوم لتتفاجأ أن العم سليم لوحده وعلى غير عادته من حيث الملبس والشياكة.

- غريبة .. أين هو عصام اليوم .. ألم يصل حتى الآن؟

- عصام مريض اليوم ولن يأت.

- همم .. الله يشفيه.

رد عليها أن قال "آمين" رغم أنه يقول في قرارة نفسه "الله يطول بمرضه". حاول الخوض معها في الحديث فقال:

- هل أنتِ متزوجة أم لا يا ثريَّا ؟

فكّرت بماذا ترد عليه، لو أنها قالت نعم فسيسألها عن زوجها لماذا تركها تعمل في محل مثل محله. فكرت قليلا ثم ردت:

- مخطوبة . .

تمادى في أسئلته قليلا:

- اهمم .. لماذا لم تتزوجي حتى اللحظة؟

امتعضت من بجاحة أسئلته، فردت:

- حال البلد معروف، لا داعي للرد.

ابتسامةً خبيثة أظهرتها أسنانه الممتلئة ببقايا "الشمة والقات ودخان السجائر"[١] ثم رد عليها بخبث:

- لو محتاجة أي شيء أنا عندك ها .. أي شيء طبعا.

شكرته وكأنها لم تكترث لما قال واستمرت في العمل. حان وقت الغداء. رغم أن العم سليم لا يطلب في الغداء سوى خبز مع الزبادي وإذا رأى أن العمل جيد يشتري رز مع نصف دجاجة أما اليوم فهو مختلف. ذهب العم سليم واشترى أرزا مع دجاج وبعض "السحاوق"[٢] واشترى أيضا "فحسة"[٣] إضافةً إلى مشروبات غازية وبعض الفاكهة. اندهشت ثريَّا لما اشتراه، وبما أن عصام ليس موجودا،فقد استغل ذلك حيلة كي يغلق

(١)عادات سيئة

(٢) مسحوق الطماطم

(٣)وجبة شعبية يمنية، اللحم هو المكون الأساسي فيها

المحل وقت الغداء بحجة أنه لا يوجد عصام حتى يحرس الأشياء التي بالمحل.

طرحت عليه فكرة عدم إغلاقه فهي ستقف حتى يكمل غداءه لكن العم سليم أصرّ أن يتم إغلاق المحل ليأكلوا دون أن ينغص غداءهما دخول الآخرين، ولتتغدى هي لوحدها إن أرادت، وبدأ يتفلسف بأن لا فائدة من الأموال التي نجنيها ما دامت لا تريح مالكها. بدأت ثريَّا تشعر بالخوف من هذه الخطوة، لذا بقيت مستعدة لأي شيء يمكن أن يحدث. ما إن بدأ العم سليم بإغلاق باب المحل حتى وصل مجموعة رجال مدنيين يلبس كلٌّ منهم ثوبا يمنيا يتوسطه حزام وعلى أكتافهم البنادق. لقد أتوا لأخذ الخُمُس من أرباح المحل للدولة، فالحوثيون يأخذون الخمس بحجة أنهم من آل البيت، وعلى الجميع الانصياع لهذه الأوامر وإلا فهو يخالف الشريعة التي تجيز لهم أخذها_حسب زعمهم_ حتى وإن استدعى الأمر استخدام القوة. استغلت ثريَّا الموقف فاقتسمت الغداء وأكلت نصيبها، بينما كان العم سليم يتحدث إلى الرجال المتذمرين محاولًا تخفيف ما طلبوه. ما إن انتهى من الحديث مع أولئك الرجال حتى أتى زبون يطلب شالًا رجاليا. تأفف لما يحصل وهو يقول:

- من الصباح ولا زبون، لما قد "احنا نشتي نتغدى"[1] يتهافتون علينا.

أجابت ثريَّا وهي تلم السفرة التي وضعتها للأكل قائلةً:

- لا عليك يا عم سليم، أنا أكلت والآن بمقدورك تتغدى براحتك.

امتعض لما حصل، فذهب إلى المخزن وهو يتمتم ببعض اللعنات. أكل غداءه وهو يفكر في كيفية الوصول إلى ثريَّا ويرفس جسمها الرخو الجذاب. انتهى ذلك اليوم ولم ينل ما كان يفكر فيه.

ما زال عصام مريضا وربما لن يأت يوم غد. أتى اليوم التالي وما زال العم سليم مُصرّ لتحقيق ما يفكر فيه، وهو الاختلاء بثريَّا داخل المحل.

انتهى اليوم وحان موعد رجوع ثريَّا.وقبل خروجها أَمَرَها العم سليم أن تحضر عصبة المفاتيح من المخزن حتى يغلق المحل. ذهبت إلى المخزن لإحضار المفاتيح ـالذي تركهم سليم قاصداـ

(١) نريد غداء

فلم تجد نفسها إلا أمام ذئبٍ بشري أغلق الباب مستغلًا موعد صلاة المغرب. ارتعدت ثريَّا للأمر وبدأت تنظر هنا وهناك.

- لا تخافِ يا قمر! ما راح أعمل بك حاجة.
- إذا حاولت تقترب مني أو تعمل أي شيء سأصيح حتى يسمعني القاصي والداني.

كان الخوف باديا في عينيها .. بدأت تتحرك في المكان كلبوةٍ ثائرة، ما أرادته أن يقترب منها، ولكنه بقوته الرجولية أمسك بها، وبدأ يقبل أجزاء من رقبتها وخدها. يا للقساوة ! لقد كان شهوانيًا أكثر من أي حيوانٍ آخر. حاول أن يقترب من أماكن أنوثتها لكنها تخلصت منه بحيلة وهي تصرخ بحرقة.

تركها العم سليم أخيرًا بعد أن استمتع بتقبيل جسمها اللدن الذي ظل أياما وهو يتخيله أمام عينيه. كاد أن يفعل فعلته لولا أنه خاف من أن ينكشف أمره. تركها أخيرا، وذهب، بينما هي ظلّت تبكي، وتصلح ما بعثره في ملابسها وأصلحت خمارها. ابتعد عنها وأظهر ملامحه المزيفة التي تقول أنه نادم على ما حصل، وأن الشيطان أغواه حتى قَدِمَ على عمل ما قام به، وحاول الاعتذار منها. كانت تبكي بحرقة لما وصل إليها الحال. إنها خريجة ماجستير ومن الأجدر أن يكون مكانها في جامعة حكومية أو مدرسة راقية أو حتى في مقر حكومي محترم، لا في محل ملابس يُستهتَرُ بها وتُداس فيها كرامتها، ولكن في ظل هذه الأوضاع السيئة حتى الدكاترة الكبار أصبح حالهم يرثى له.

رجعت إلى المنزل وهي منكسرة أكثر مما يمكن تخيله .. تشعر وكأنها عارية من الكرامة، مسلوبة الحياة .. كئيبة حد الغرق، ومتشائمةٌ حد الانتحار. إنها امرأة مهيضة الجناح، ضاعت كرامتها وهي تبحث عن رزق عائلتها. تقول في نفسها وهي تمشي نحو الشارع العام لانتظار الباص:

" إذا كان قد عبث معي اليوم هكذا فهذا يعني أنه سيعمل ما لا يمكنني تخيله في الأيام القادمة ".

إنَّ كلّ امرأة في هذه الحياة تستطيع الصمود في وجه الحياة كما تصمد الجبال الشامخة أمام العواصف الشديدة، لكن ما إن تُهان كرامتها حتى ينهدّ ذلك الجبل كلّه مرّةً واحدة. هكذا حصل مع ثريَّا بعد أن خرجت من محل سليم، خائرة القوى، لم تعد حركات السير غير المنتظمة تشدها، ولا الخدود المنتفخة بعشب القات يلفت نظرها، لم تعد تهتم كيف يبدو هندامها وشكل جزمتها المتسخة، إنها الآن لا تهتم لأي شيء سوى أن تصل المنزل لتبكي وتبكي ثم تبكي وتنام. نزلت من الباص لترى منزل عائلتها ينتظر عودتها. يا لها من حياةٍ ظالمة! مرةً تبكي ومرةً تلعن العم سليم، وأخرى تلعن الحوثيين، فتهدأ قليلا، ثم تشتم جميع الطوائف التي تسببت في حرب اليمن. هدأت قليلا، شاردة الذهن كانت نظراتها.. عاودت تبكي ونبرات صوتها الواهن يردد اللعنات على نفسها؛ لأنها تساهلت عن كرامتها ولم تكن صارمة مع العم سليم في تصرفاته.

هكذا هم الضعفاء يا عزيزي في بلد مثل اليمن، وفي ظل حرب غوغاء، سلاحهم أمام من يسلبهم حقوقهم إما الدعاء وإما الشتم والبكاء .. لا حول لهم ولا قوة.

تسلّقت سلم المنزل شاردة التفكير، تقول في نفسها أنها لابد أن تترك العمل، ثم تفكر في من سيدفع ما عليهم من ديون؟ أين ستبيت العائلة ولا يوجد من يوفر لها ما تسيِّر به أمورها.عقلها مشتت .. تشعر بأنها لا شيء في هذه الحياة. فكرت أن تخبر والدها بما حصل لكن والدها حبيس داره ، لا يستطيع القيام بأي شيء.لو أن أخاها ـالذي قُتلـ ما زال في الوجود لربما أخبرته،ولانتقم لها من سليم ـالذي ليست لديه مروءة ولا شرفـ كما تقول ثريَّا.لم تجد مخرجا لما هي فيه سوى أن تذهب في اليوم التالي وتأخذ أجرة الأيام التي عملت فيها، ثم ترجع.

عندما أتت لأخذ أجرتها حاول العم سليم الاعتذار منها ـدون علم عصامـ على أن تبقى، لكنها أصرت على الذهاب. سلمها أجرتها وقبل أن تخرج ترجّته أن لا يخبر أحدا بما حصل ثم ذهبت.

استغرب عصام للأمر وأحس بأن العم سليم عمل شيئًا سيئًا في اليومين اللذَين تغيَّب فيهما عن العمل ، فتساءل:

- هل هناك أمر ما يا عم سليم؟!

أجابه وكأنه لم يكترث للأمر:

- مهملة لعملها كغيرها من المهملات، لا تفهم أين مصلحتها . دعك منها وانتبه لعملك.

عرف أن العم سليم عمل ما كان يخاف وقوعه فتابع عمله وهو يستنكر في قرارة نفسه ذلك.

***

الفصل الخامس

-١-

إنه الثاني من ديسمبر/كانون الأول، قبل أيام اشترت العائلة ألواحا شمسية حتى تسلم شراء الشمع الممل أو المصابيح اليدوية. في الساعة الثامنة مساءً كانت ثريَّا تشاهد التلفاز بكل ملل . . لا جديد، فأخبار الحرب وما خلفته أصبحت مثل النشرة الجوية، لابد من وجود تلك الأخبار بشكل يومي لدرجة أن الشعب لم يعد يهمه من يموت ومن يحيى. بين رتابة تلك الأخبار ظهر خبر مهم يقول أن علي صالح ـالرئيس السابق الذي ترك السلطة بعد أن أرغمته ثورة ١١ فبراير على ذلكـ سيلقي خطابًا بعد دقائق. بانتباه شدها ذلك الخبر. رغم أنها تكرهه إلا أنها انتظرت لسماع ما سيقوله بفارغ الصبر. ظهر علي صالح إلى جانبه يد تمسك بالميكرفون بينما هو يلقي خطابه الأخير.

"... يا جماهير سبتمبر وأكتوبر . . أيها الشعب اليمني العظيم! ثُور . . ثُور . . ثُور . . إني في مسكني الذي يقصف على بعد مئة

متر . . أقول هذه براءة من ذمتي إليك أيها الشعب اليمني . . هبوا في كل شارع . . تحية لك أيها الشعب . . وداعا . . والسلام . . "(١)

كانت تستمع لخطاب علي صالح وكأنه يقول كلماته الأخيرة. بعد أن انتهى الخطاب قالت في قرارة نفسها "علي صالح لديه أتباع كثر . . حتمًا سيلبون النداء وستعم الفوضى وتكثر أخبار القتل"

أغلقت التلفاز ومن ثم تفقدت عائلتها وتململت نحو غرفتها للنوم. استلقت على سريرها تحاول أن تنام .. صوت علي صالح الجهوري يتردد في أذنيها .. تفكر .. تسرح .. تضحك .. حاولت النوم .. تتقلب على السرير .. أخذت الهاتف .. تفقدت الساعة وأعادته .. أخذته للمرة الثالثة وفتحته .. شردت قليلا، تفكر ما إن ترسل رسالة لعقيدها وتترجاه كعادتها في أن يعود أم لا؟ بدأت تكتب:

- مساء الخير

- . . .

(١)الخطاب الأخير للرئيس اليمني علي صالح

- حبيبي ..

- ...

- اشتقت لك كثيرا يا روحي .. ممكن أتكلم معك؟

- أهلا .. مساء النور.

- هلا وغلا ..

- ...

- ممكن أتصل بك ؟

- عفوًا لا أستطيع .. هناك من هو بجانبي.

- متى سنلتقي يا منصور؟ لو تعرف كم اشتقت للقائك!

- ...

- حبيبي .. كان اليوم عيد ميلادي ..

- ...

انتظرت بضع دقائق منتظرة الرد، أخيرًا أتاها الرد:

- أووه . . عيد ميلاد سعيد . . دخلتِ سنتك الثانية والثلاثين. . هل هذا صحيح؟

بكل أسى كتبت:

- صحيح. . لم أكن أتصور أن الأيام ستركض بكل هذه السرعة يا منصور.

فكّرت بأن تسأله متى سيعود، لكنه شعر بذلك فقال:

- تصبحين على خير . . لابد أن أنام.

تأففت لتصرفاته ولعنته في نفسها ثم تركت الهاتف جانبا، وانقلبت على الجانب الآخر وغاصت في نومه

-٢-

ها هي صنعاء تتنفس صباحها بملل . . لا جديد يمكن ذكره هنا سوى أعداد القتلى وأسعار العملات المرتفعة أمام الريال اليمني إضافةً إلى أخبار الجبهات ومتارس القتال التي سئم الجميع من سماعها وهي تتقدم وتتقاعس في نفس الأماكن. الأخبار تقول أن هناك انتفاضات في بعض المدن جراء خطاب "علي صالح" ليلة البارحة.فرح البعض بذلك ظانين أن أتباع "علي صالح" سيحسمون المعركة بعد ذلك الخطاب، فهو الرجل القائد الذي كانت تخرج له الحشود والمسيرات بالملايين، وهكذا بقي الكثير تلك الليلة يترقبون التحركات القادمة التي ستحصل في البلد حتى الصباح.

***

إنه الرابع من ديسمبر، فكّرت ثريَّا كثيرًا في البحث عن مصدر رزق تستطيع من خلاله أن تنفق على عائلتها المسكينة. تذكرت هالة؛ صديقتها في التخصص وكذلك في تحضير رسالة الماجستير وحتى في العمل عندما كانا يعملان في المدرسة فأخذت هاتفها واتصلت بها. صوتٌ قادمٌ من سماعة الهاتف:

- الو

بدأن حديثهن بالأسئلة المعتادة والتملق الزائد ثم بدأت ثريَّا تتكلم في عمق الموضوع:

- في الحقيقة يا هالة اتصلت بك لأني أبحث عن عمل.. هل بإمكانك مساعدتي؟

غاب صوت هالة برهةً من الزمن وكأنها كانت تفكر ثم عاد صوتها من جديد:

- قبل أيام اتصل بي شخص قال أنه نظراً لتدهور التعليم في البلد والأوضاع التي تسببت في إغلاق المدارس الحكومية رأى بعد تفكير عميق أن يعمل دراسة جدوى لفتح مدرسة خاصة واستقبال الطلاب والطالبات بأسعار معقولة تمكنهم من تلقي التعليم الذي حرمتهم منه الدولة في ظل الأوضاع الراهنة.

قاطعتها ثريَّا:

- ولكن من سيتكفل بالدعم المادي؟

- لديه شخص آخر سينظمّ إلى المشروع إذا وجدنا أنه ناجح.

- وماذا سنستفيد نحن إذا؟

- سنكون جميعًا شركاء في المدرسة؛ نحن بجهودنا ومهاراتنا أما هما فعليهما التمويل .. هاه .. ماذا قلتِ؟

- جميلٌ جدا .. اتفقنا.

سكتت هالة قليلًا ثم أردفت:

- بما أنك أكثر خبرة في عمل دراسات الجدوى منذ تحضيرك الماجستير، فأرى أن دورك في البداية عمل دراسة جدوى للمشروع لنرى كم ستكون التكلفة ونرى ما إن سيكون المشروع ناجحًا أم لا.

قبلت ثريَّا بالأمر. ورجعت إلى المنزل للعمل على دراسة المشروع بحماس. عملت عليه حتى شعرت بالإرهاق، ثم ذهبت لمشاهدة التلفاز كي ترتاح قليلا. ما إن فتحت التلفاز حتى تفاجأت بخبرٍ صادم. كان على الشاشة مجموعة من رجال الحوثيين ملتفّين حول جثة علي صالح ـالذي قدّم خطابه البارحة وهو يستنصر بالشعب على الحوثيينـ وهم يؤدون الصرخة ويكبرون وكأنهم ظفروا بعدوٍ كبير لهم. حدقت في الشاشة أكثر . . هل هو حقًا أم أن الفيديو مفبرك؟ لم تصدق ما تراه عيناها فعلي صالح ليس بالرجل السهل الذي من الممكن أن يُقتل بكل هذه السهولة.

اتصلت بصديقاتها فقلن لها أن الخبر حقيقي.صدمت بالأمر

"كيف لهم قتله بكل هذه السهولة؟ أين قوَّاتك وحشودك يا علي صالح؟ ألم تكن تخرج بجنودٍ لا حصر لها؟"

الفيديو ما زال يعرض في عدة قنوات موثوقة. الخبر ليس مزيفًا بل كان حقيقيا. اقتربت من الشاشة أكثر لترى أن رأسه قد تهشم، والدم متجلط وكأنه قتل من قبل ذلك بساعات.

كانت تنظر إليه وهي تقول " ما أردت أن يموت هكذا . . لم أرد أن يموت الآن" رغم أنه كان سببًا في قتل الآلاف من اليمنيين إلا أن بعضهم ما أراد له تلك الموتة، بينما بعضهم يقول أنه يستحقها. دخلت على والدها حزينة لتخبره بما حصل:

- أبي . .! لقد قُتل علي صالح.

ضحك الأب باستهزاء، ثم قال:

- من ربط الحبل لرجله لقي من يسحبه يا بنتي.

لم يرق لها كلام والدها، وكأنه فرح لمقتله، فردت على أبيها:

- ولكن رغم أني لا أحب علي صالح يا أبي إلا إني أحسست في خطابه الأخير ما لم أحس به من الصدق في خطاباته السابقة، لقد كان صادقًا هذه المرة يا أبي فقد قال كلمته وكأنها وصيته الأخيرة.

- يا لغبائكم يا ثريَّا ، أوافقك في مسألة صدقه في خطابه الأخير، لكنه تأخر كثيرا. ألم يقل في خطابه أن الموت على بعد مائة متر منه؟ لقد كان صادقًا فقط لأن الموت اقترب منه، وهذه فطرة إنسانية، فقد كان فرعون كذلك صادقًا قبل أن يموت وقال إنه آمن.

نزلت ثريَّا قبل المغرب لشراء بيضات وقليل من الطماطم. اقتربت من الماركت فشدها صوت رجلين يتهامسان على انفراد:

- عيش ترى العجب يا صاحبي.

شدتها جملته تلك فوقفت ثريَّا في مكانها، رد عليه الآخر:

- كان الجميع يتوقعون حدوث انتفاضة من قبل قيادات حزب المؤتمر للأخذ بالثأر، لكن الأيام مرت والأسابيع توالت ولا أي تحرك في البلد يندد بمقتل زعيمهم . . لقد كانوا أجبن مما كنت أتخيلهم يا صاحبي، فلقد تركوا جثته في الثلاجة دون أن يطالبوا بإخراجها.

- ما سمعت الخبر ! بعد فترة قيل أن جنازة علي صالح ستُدفن، وخرجت جنازة الزعيم كما يقول أتباعه ولكن دون مراسم. لقد حضر أقل من عشرين شخصا فقط.

ضحك الآخر، ثم قال:

- لا أظنها في الحقيقة جنازته، فالحوثيون يريدون بقاء جثته في الثلاجة كما بقيت جثة سيدهم حسين بدر الدين الحوثي. في الحقيقة لم يقتلوه لأنه حاول استثارة الشعب ضدهم،بل كانوا يتحينون الفرصة المناسبة والعذر المناسب للأخذ بثأر "حسين بدر الدين الحوثي" الذي قتله "علي صالح" في الحروب الماضية. إن الثأر متأصل في القبائل اليمنية يا صديقي.

- صدقت والله . . عاد الحرب مطولة .

لا أحد يجرؤ على البوح بما في نفسه، فالجميع يتهامسون فقط عندما يتحدثون عن السياسة، خوفًا من التعرض للحبس أو القتل إن تطلب الأمر.ثُريَّا ما أرادت أن تمكث أكثر، خوفًا أن يشعران بذلك. ذهبت فاشترت ما أرادت ثم عادت.

***

الفصل السادس

-١-

ها هو الليل يتساقط على هذه المدينة كقناديل مشعَّة في ساحةٍ مُضاءة. لَكَمْ أرادت ثريَّا أن تبدأ سنتها الجديدة ـ٢٠١٩ـ مع منصور، لكنه غريب الأطوار في كل تصرفاته، وثريَّا لا تعرف سبب كل تلك التصرفات، مثله مثل أصحاب الأعراف، ما بين الجنة والنار، فلا هو الذي عاد من غربته وتزوجها وأدخلها جنته ولا هو الذي طلَّقها وتركها تذهب حتى وإن كان إلى الجحيم. في الحقيقة لم تعد تريده حبيباً أو زوجا، إنها تريده مُخلِّصا لا أكثر. تريد أن تعيش ما تعيشه أي زوجةٍ مع زوجها ولكن الهموم والأحزان أبت أن تتركها تتنفس الصعداء ولو قليلا. إنها تعيش في تخبطٍ وحيرة . . مشاعرها المتضاربة دومًا تنغص حياتها.

فتحت الانترنت من هاتفها المحمول لترى ما جديد صديقاتها. يا لهذا الانترنت البطئ ! إنه أبطأ من سلحفاة. انتظرت

دقائق فوصلتها رسائل. لمحت من خلف شاشة الهاتف أن هناك رسائل من عقيدها منصور. نصف ابتسامة اغتصبت شفتيها.حاولت فتح الرسائل لكن الهاتف تجمد . . لا يفتح أي شيء. تأففت وهي تلعن الفقر، لأنه لم يسمح لها بشراء هاتف لا تتجمد برامجه عندما تفتح الانترنت. فجأة، استطاعت دخول برنامج "الواتس آب" . فتحت مباشرة محادثة منصور. آخر رسالة أرسلها كانت قبل أسابيع. يا له من رجل قاس.

لمحت الرسائل بسرعة:

- ثريَّا. . حبيبتي. . اشتقت إليكِ كثيرا. قررتُ السفر الأسبوع القادم. سنقيم حفل زفافنا عندما أصل مباشرة فكوني على أتم الاستعداد .

اندهشت لما قاله:

- هل ما تقوله حقيقة؟

- نعم

شكرته بامتنان لذلك . . كانت رغم كل شيء فرحة جدا. ذهبت إلى والدها فأخبرته بالخبر.فرح للخبر فرحة مشوبة بالحزن والألم.

دخلت غرفتها الخاصة . .قررت أن تخلع رداء الحزن والتعاسة اللذان غطّياها عمراً فأغلقت باب الغرفة وقامت فخلعت ملابسها حتى تستحم. لقد أصبحت شبه عارية.نظرت إلى نفسها فعرفت أنها انشغلت كثيرًا بالركض خلف لقمة العيش . . لم تهتم بنفسها منذ شهور.بعد أن استحمَّت شعرت أن الحياة بدأت تدب في روحها المنهكة من جديد. أخذت المشط وبدأت تسرح شعرها. كان جذابًا بعد أن تشبع بالماء والدهن المخصص له. أخيرا ـو كما خُيِّلَ إليهاـ ستتزوج وتعيش حياتها الطبيعية . . ستنتهي الأيام التعيسة.

استمر منصور أيامًا حتى وصل إلى صنعاء، في كل مرة تسأله إلى أين وصل يخبرها أنه ما زال في نقطة التفتيش الفلانية. لقد أصبحت كل مدينة تفتش الداخلين إليها وكأنها دولة مستقلة. ليس هذا فحسب، بل حتى بداخل المدينة الواحدة لن تمر قبل أن يفتشوك مرات ومرات.

بعد طول انتظار وصل منصور إلى صنعاء. رغم أنها ذاقت المرّ من ورائه إلا أنها كانت منتشيةً لوصوله. اتصلت بجميع صديقاتها لتخبرهن بمقدمه واتصلت به أيضًا لتخبره أنها في أتم الجاهزية للزواج، فلقد سرَّحت شعرها لدى الكوافير وجهَّزت كل ما يلزم واشترت هدية له أيضا. زار منصور عائلة ثريَّا واتفقوا على أن يكون العرس الخميس القادم. وزّعت دعوات لكل صديقاتها وقامت بكل التجهيزات التي كانت تخطط لعمل ذلك. لقد أغدق عليها منصور بالأموال فاشترت كل ما كانت تتمناه. صديقاتها مندهشات من ذلك البذخ في شراء حاجيات العرس. لقد كانت تشعر أنها تعيش في حلم لا حقيقة، ولكنها إلى هذه اللحظة لا تعرف سبب كل ذلك التأخير وسبب كل ذلك الجفاء وحتى سبب كل هذا البذخ. كانت سعيدةً فحسب ولا يهمها معرفة أجوبة كل تلك الأسئلة.

اتصلت بصديقتها ـهالةـ وأخبرتها أنها لن تستطيع أن تكمل معهم مشروع المدرسة، ودعتها لحضور عرسها ثم أغلقت الهاتف. من أجل تحقيق هذا الحلم ستترك كل شيء . . إنه حلم حياتها. حتى والدها المسكين وأخوتها الصغار رغم أنها تتألم لفراقهم إلا أنها ستتركهم ، المهم أن تحقق معجزتها التي انتظرتها منذ سنين.

-٢-

أتى منصور برفقة بعض أصدقائه لأخذها من منزل أبيها إلى بيته. وهي تمشي وسط الحضور كان أبوها ينظر إليها وعيناه المنهكتان تكادان تذرفان الدموع . . لم تكن تعرف "هل تلك الدموع من الفرح أم من الحزن!". هي تعرف أنها كانت الوحيدة التي تعيلهم وتوفر لهم ما يحتاجونه لكنها أيضًا من حقها أن تتزوج وتستمتع بالحياة مثل أترابها من النساء، وهي لن تنساهم أيضا. لوَّح الأب بجفنيّ عينيه مودعا إياها ثم دخل غرفته ولم يخرج منها طوال يومه.

دخلت المنزل التي كانت تحلم أن تدخله يوما. إنها ليلة دخلتها، ليلتها التي حلمت بها منذ أن عشقت محمداً ، كانت تحلم أن تكون غرفة ليلة الدخلة أنيقة ورومانسية. تخيلت نفسها وهي تلتقي بذلك الفارس الذي سيأتي على سيارة فارهة فيمسك بيدها ويأخذها إلى غرفتها، فتدخلها وعليها الأضواء الخافتة، والسرير

المغطى بالستائر البيض وإلى جانبه طاولة عليها عصائر طبيعية وشمعتان حمراوان وإلى جانبهما صحن مطرز عليه المكسرات من اللوز والفستق وشوكولاتة فاخرة، أما الشيء الأهم فهو موسيقى رومانسية هادئة، فهي تعشق الموسيقى رغم أن الكثير يقولون أنها محرمة . . لكنها لا تهتم لما يقولون.

لقد قام منصور بعمل كل ما كانت تحلم به. دخلت أخيرا ـ كما يقولون ـ القفص الذهبي. نظرت نحوه لتجد أمامها رجلا قصير القامة، بطنه متدلية قليلًا إلى الأمام، أما شفتاه فقد كانتا سمراوان إلى حد القتامة. نظر إليها هو الآخر فابتسم بهدوء:

- أهلا . .

لا يهمها شكله . .أرادت أن تعيش اللحظة كما تخيلت، ما إن تلقاه حتى ترتمي في صدره وتضمه ثم تقبله حتى تتشبع بذلك روحها. ابتسمت بفرح قائلة:

- حياك الله يا ابن عمي . . وأخيرا!

جلست على السرير المغطى بالستائر ذات لون البيج والمزخرف ببعض الرسومات الجميلة، بينما هو كذلك جلس إلى

جانبها وبدأ يحلُّ ما قامت به الكوافير طوال يومها. أخيرًا انتهى من حلّ شعرها فأصبحت مع فستانها الأبيض وشعرها المنسدل على ظهرها وكأنها حورية هبطت من السماء.

لكم تحب الموسيقى، لذا اقترحت قبل كل شيء أن تُفتح موسيقى هادئة. إنه يلبي لها كل رغباتها وكأنه يمتعها بآخر لحظاتها.ها هو الخيال يصبح حقيقة ولكن لماذا كل هذا؟ لا يهمها لماذا كل هذا . .المهم أنها ليست في حلم. بدأ الزوجان يقيمان مراسيم ليلة الدخلة . .تدغدغ وجهه بخصلات شعرها الحريري . . تستنشق عطره وتشعر بدفئه .أما هو فقد كان حيوانيًا كما كان . . لم يتغير، يريد أن يقفز إلى الخطوة الأخيرة مباشرة.ثريَّا تُهدئه قائلا:

- أنا كلي لك ، فقط اهدأ قليلا.

تحسّس بشرتها المخملية الناعمة . . إنها أجمل النساء. مرَّر يده على خدها ثم قال:

- هل ما زالت عذريتك موجودة؟

استحيت لسؤاله، فأجابت:

- وهل تظن أني سأفرِّط بذلك؟

ضحك بتهكم، ثم قال:

- خفت أن تذهب مع كثرة الاستمناء.

نظرت إليه فابتسمت بحياء ثم أجابت:

- وهل نسيت أني كنت أقوم بكل ذلك من أجلك؟ لا تخف فأنا واثقة أنها ما زالت موجودة.

قهقه باستكبار:

- دعينا نرى إذن.

خلعت ملابسها حتى انتهت بينما هو ينظر إليها بشهوانية زائدة ثم قال:

- ما كنت أتوقع أن جسمك إلى هذه الدرجة من الجمال.

قليل من الحياء كان باديًا عليها أما الأكثر فقط ذهب مع أول لمسةٍ له:

- ...

اقترب منها فشدها من شعرها ورماها على السرير بشدّة. قهقهة خفيفة ممزوجة بالألم خرجت منها تترجاه أن يكون لطيفًا معها. انقض عليها بقوة بينما هي تظن أن كل هذا من أجل الاستمتاع أكثر لذا رضخت لما يقوم به وكأنها فرسٌ رخو العِنان.

خدش عذريتها بجلافة وظل يعذب جسمها اللين حتى شبع وانطفأت شهوته، ولو أنها لم تنطفئ لربما ظلّ يعذبها حتى الصباح. لم تجد نفسها إلا وقد فاقت بعد أن أغمي عليها. نظرت نحوه وكأنها تنظرُ إلى ذئب ينتظر فريسته، خاطبته بكلمات تحمل معاني الترجي واللوم:

- لماذا كنت قاسيًا معي هكذا؟

نظرت إلى نفسها، إنها تنزف. بدأت تئن . . تبكي. اقترب منها بوجهٍ يشع منه الغضب والحقد:

- كم أصبح عمرك الآن يا ثريَّا ؟

نظرت نحوه وقد تبلل خديها بالدموع:

- ثلاثا وثلاثين سنة . . لقد مضت منذ أن عقدت بي سبع سنين يا منصور.

قذف ضحكةً انتصار ثم قال:

- يا لكِ من تعيسة! لو أنكِ تزوجتِ بمحمد لكان لديكِ الآن ولدٌ يذهب إلى المدرسة.

عقد ناصيته . . ما يزال يضحك بتبختر ويمسك بشعرها دون رحمة بينما أسنانه تصتك ببعضها. نظرت إليه بجناحٍ منكسر ثم قالت:

- هل تعني أنك لم تتزوجني إلا لكي تنتقم مني أم ماذا؟

اتجه نحو دولاب الغرفة، وأخرج منه خرقة بيضاء. فتح الخرقة وأخرج منها مسدسا. أمسك بالمسدس وبدأ يتفقده ويمسح على حافته وكأنه يترفق به ، ريَّا بدأت ترتعش وتترجاه:

- ما هذا يا منصور؟

بتبختر أجاب:

- أرى أن أمك أرسلتك دون أن تعطيك خرقة بيضاء، لذا جهزتها بنفسي.

سكت قليلًا ثم أردف:

- آه . . اعذريني يا عزيزتي! لقد نسيت أن والدتك قد توفَّت . . هل اشتقتِ إليها؟

ثريَّا لا تصدق ما تراه عيناها:

- هل جننت يا منصور؟

- لا لم أُجنَّ يا عزيزتي . . إني بكامل قواي العقلية والبدنية.

كانت الدموع تتساقط من عينيها بغزارة:

- ولماذا خدعتني وأخبرتني أنك خرجتَ لنُتِمِ فرحتنا ونجتمع تحت سقفٍ واحد؟

أحكم قبضته على شعر رأسها، بينما هي عارية الآن ليس من الملابس فقط، بل حتى من المشاعر التي كانت تتخيل أنها ستعيشها في مثل هذه الليلة. صرخت من شدة الألم ثم نظرت نحوه وأكملت حديثها.

- ليتك لم تترك غربتك يا منصور وأبقيتني أنتظرك حتى أموت! أخبرني إذن، لماذا كلَّفت نفسك عناء العودة ؟ أرجوك عد إلى صوابك؟

ابتسم ابتسامةً خبيثة ثم قال:

- سأعود طبعا . . لن أبقى هنا، فقد خرجت لكي أخبرك عن محمد الذي لم تخبريني عنه من قبل. الحب الأول . . أتذكرينه؟ أخبركِ عن كل من دخلتِ معهم في علاقات غرامية دون أن أعلم بأي شيء عنهم يا بنت الـ . .[1] أخبركِ أني متزوج، وأن هذا المنزل ليس لكِ كما كنتِ تتصورين . . لقد استأجرته لأنهي هذه المهمة فقط. لقد خرجتُ يا ثريَّا بالأخص لأخبرك أني ما أحببتك يوما، وكل ما أردتُه هو أن يمشي جلّ شبابك وتشيخين وأنتِ لم تتزوجي بعد.عدْتُ من غربتي لأخبر ذاك الرجل الأخرق الذي أخبرني عن جمالك ولم يخبرني عن كل ماضيكِ السيئ وعن مرضكِ النفسي وعن كل شيءٍ أخفاه عني فأخبره أني الآن أعرف كل شيء. سأقتله بعد خروجي من هنا يا ثريَّا ، فليكن بكاؤك هذا من أجله أيضا.

كانت تترجاه . . تبكي . . تتمتم . . بينما هو يضربها دون أي رحمة. يا لحظّها التعيس! نظرت نحوه وتمثلت أمامه بِذُل ثم قالت:

(١) كلمة نابية

- اعتبرني خادمتك المطيعة . . لقد وهبت حياتي من أجلك وسُعِدْتُ جدًا لمجيئك . . لِمَ تعمل معي كل هذا؟

شدَّ شعرها بقوة . . صرخت من الألم . . نظرت نحو عينيه فكانتا ممتلأتين بالحقد والغضب:

- أخبريني . . هل هناك أشياء تودين إخباري بها أو تحبين معرفتها قبل أن تموتي؟

آه، نسيت أن أخبرك عن جلال، الحب الأخير . . أتذكرينه؟ أظن ذلك المجنون من قتله. رغم أنه لا يعرفني إلا أنه انتقم لي منه أيضا. هو أيضًا كان خائنا، لقد وثق قائده به ولكنه خانه وأخبرك بمهمته. يا له من غبي! إنه لا يعرف أن لا عهد لدى النساء وأنهن سبب كل المصائب في هذه الحياة.

نظرت نحوه باندهاش لما سمعته . .يداها ترجف والخوف يملأ عينيها:

- من أخبركَ بكل هذا؟

شد شعرها أكثر حتى كاد أن يقتلعه من أم رأسها ثم أجاب:

- أتذكرين سليمان؟ إنه رجلٌ طيب، لقد أخبرني بكل شيء عنكِ وكان يحذرني دائمًا من أن أتزوجك. إنه صديقي الوفي . . لقد كان يوافيني بكل ما تقومين به. حتى أمرُ سجنك، فقد أخبرني به قبل أن يعرف أحد، إني مدينٌ له بهذا المعروف.

ما زالت تترجاه بكلماتها:

- لم أخنك يا منصور . . أحلف لكَ أني لم أخنك يوما، لقد انتظرتك كل هذه السنين ثم تجازيني هذا الجزاء؟ كان بوسعي أن أتزوج أحدهم لكنني لم أفعل، كان بوسعي أن أبيع شرفي وأعيش حياتي برفاهية ولكنني لم أفعل أيضا . .سليمان يكذب . . والله إنه يكذب ، فهو لم يقم بكل هذا إلا لينتقم مني ومنك . . كل هدفه هو أن يهدم مستقبلنا لا أكثر . .أرجوك صدقني.

بغلظة رماها على السرير ولسانه يردد أقذع الشتائم. أخذ المسدس بشماله ، بينما سحبت يمينه لشحن رصاصة في بطنه، أما هي فقد غطت بيديها على عينيها تبكي بصوتٍ مبحوح تترجاه من خلاله، نصف ضحكة قذفها بتبختر، ثم قال:

- صوت الرصاصة سيجلب لي الكثير من المشاكل.

هدأت بضع ثوان، استجمعت خلالهن قواها، نظرت نحوه بتحد، فقالت:

- إياك وقتلي . . إن قتلتني ستندم طوال عمرك، وسيلعنك كل من سمع بفعلتك.

يعترف في نفسه أنه كان يشعر بالخوف لما هو مقبلٌ عليه منذ البداية، لكنه في كل مرةٍ ينتابه ذلك الشعور يقول في نفسه "من ذا الذي سيسأل عنها؟ إنها أقلَّ من أن يعرف بموتها بشر أو يسأل عنها أحد"

أخرج خنجراً كان قد جهزه لهذه المهمة، انقض عليها بضربةٍ اخترقت صدرها. شهقت شهقةً طويلة بدأ معها صوتها يتحشرج.دموعٌ مقدّسة تسيل من عينيها المنهكتين بهدوء، يُلخصن في انسيابهن حياةً تراجيدية لامرأة كان أكبر أحلامها أن تكون زوجةً لا أكثر.

تركها منصور على الأرض بعد ذلك ثم قام وفتح نافذة الغرفة وكأنه يستنشق الانتصار الذي حقّقه. أخيرًا خرج من الغرفة تاركًا ثريَّا وراءه مرمية على الأرض تنزف دما.

***

ما زال الدم ينزف بغزارة، وصوتها الباكي يستغيث علَّ أحدهم ينقذها،وفجأة، سمع أحد المارّين صرخاتها واستغاثاتها، فحاول فهم ما يجري، ثم أدرك هول الأمر، فعزم على فعل ما يقدر عليه، لكنه وجد الباب مغلقا بإحكام، فتأنى قليلا، ثم استعجل به ضميره إلى إنقاذ المستغيث، فكسر الباب ثم دخل، فإذا به يرى ما توقعه من أمر جلل. لقد كانت الدماء تملأ المكان وطعنتها الدامية ما زالت تنزف.أسعفها ذاك الرجل إلى إحدى المستشفيات القريبة، وبعد أن قام لأطباء بالواجب أنته البشرى بأن قلبها ما زال ينبض بالحياة.والدها هو الآخر أتاها بعد سماعه ما حدث، ليموت إلى جنبها إثر جلطة ثالثة كان سببها ما سمعه عن ابنته. بقيت ثريّا في المستشفى أسابيع، خلالها باحت بما حصل لها مع منصور. كانت تتمنى أن يعرف العالم عن قصتها قبل أن تموت حتى تنتقم لها الكلمات وتنتصر لها من ذلك المجرم، وكان لها ذلك.

حاول بعضهم إيجاد منصور بعد ذلك، لكنه كان قد هرب، وعاد إلى بلد الغربة التي اعتاد عليها.

كان الجو هادئاً في تلك الساعات المتأخرة من الليل، اقتربت الممرضة منها تتفقد حالتها لتسمعها تهذي ببعض الجمل وهي تقول"لم أخنك يا منصور . . أحلف لك إني لم أخنك" تهدأ قليلًا فتبتسم ابتسامات لا معنى لها، وفجأة تعاود تهذي من جديد وتبكي بطريقة هستيرية وهي تردد" لم أخنك يا منصور . .أحلف لك إني لم أخنك"شعرت الممرضة أن حالتها سيئة فاقتربت منها تقول "اذكري الله" .

ما زالت تهذي بتلك الكلمات وتتناوب حالتها ما بين الابتسامات والبكاء حتى أوشكت ساعات الليل الأخيرة على الرحيل. جسمها بدأ يرتخي، وصوتها كاد أن لا يُسمع،نظرت من سريرها نحو نافذة الغرفة بعينين مرهقتين، كان جو صنعاء حينها عابسا، والغيوم تغطي سماء المدينة بكثافة. بدأ الرعد يرسل أصواته المفزعة وكأنه يستغيث ويصرخ أن لا تموت ثريا، لكن الموت عندما يأتي لا يأبه لصراخ المستغيثين مهما علت أصواتهم ومهما انهمرت عيونهم بالدموع. لم تستطع ثريا المقاومة ليلتها تلك، لتموت في المستشفى وحيدة بعد ليلة حزينة، لفظت فيها أنفاسها الأخيرة مودعة الحياة التي ظُلمت فيها دون أن ينتقم لها أحد. كانت صنعاء حينها تسدل أستار الحكاية وهي تمطر بغزارة وكأنها

طفلةٌ تبكي بعد أن فقدت عائلتها مرة واحدة. أما ثريا فقد كان بصرها شاخصا تجاه نافذة الغرفة لتموت وحيدة، ولم تجد من يبكيها بعد موتها سوى صنعاء.